آليساندرو باريكو

بلا دماء

ترجمة

د. أماني فوزي حبشي

27.7.2019

منشورات الجمل

رواية

آليساندرو باريكو

بلا دماء

ترجمة

د. أماني فوزي حبشي

منشورات الجمل

آليساندرو باريكو: بلا دماء

آليساندرو باريكو: بلا دماء، ترجمة: د. أماني فوزي حبشي
الطبعة الأولى ٢٠١٩

Alessandro Baricco: SENZA SANGUE

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مقدمة المترجِمة

عندما صدرت هذه الرواية كان العالم قد بدأ مرحلة جديدة، كان كل ما حولنا يضج بويلات الحرب، وتُغرقه شلالات الدماء. حاولت أن أشرع في الترجمة، ولكن حالت دون ذلك ظروف كثيرة، ومنها بشاعة الجزء الأول من الرواية، ولكن العام مرّ ولم يتغير شيء فلا يزال القتلى يتساقطون في كل مكان، بل أصبح مشهد القتل معتاداً حتى بالنسبة إلى الأطفال الصغار الذين يُصدَمون به كل يوم على شاشات التليفزيون.

لم يعد المرء يستطيع فهم أي شيء مما يحدث حوله، أصبح القتل سهلاً، وكما يقول المؤلف عن بطلته: «وحاولتْ أن تتساءل من أين يأتي ذلك الإيمان العبثي بضرورة تلك الحرب البشعة، واكتشفت أنه ليست لديها إجابات».

أصبح إهدار الحياة سهلاً كأنه إغلاق منزل ما أو نافذة، الجميع يقتلون كأن أهدافهم أشجار أو ألواح خشبية.

ولكن وسط هذا العالم البشع، وتلك الرغبة في الانتقام والقتال، خرج بعض الأشخاص من منازلهم، يؤمنون بشيء

آخر، يطالبون بعالم أفضل، ولكن بطريقة سلمية، خرجوا يحاولون الدفاع عن شعب تعرَّض للظلم والقتل فباتَ أفراده بلا أمل في الحياة، خرجت راشيل كوري تحاول منع الجرارات الإسرائيلية من هدم المنازل الفلسطينية فقُتلت أسفل ثِقل تلك الجرارات المتوحشة، وخرج توماس هيرندل ليساعد الأطفال، فأُصيب بطلق ناريّ في رأسه.

ترك كلٌّ منهما مستقبله المضمون وخرج مع أعضاء «المنظمة الدولية للتضامن» ليبحث عن عالم أفضل «بلا دماء» فسقط مضرجاً بدمائه...

إليهما أُهدي هذه الترجمة.

أماني فوزي حبشي

٢٠٠٤

واحد

في الريف كانت المزرعة القديمة لماتو ريو تقبع مختفية، يلفها الظلام الدامس في مواجهة ضوء المساء. كانت كأنها البقعة الوحيدة الموجودة في تلك المنطقة السهلية الواسعة... وصل الرجال الأربعة بداخل سيارة مرسيدس قديمة. كان الطريق مليئاً بالحفر، كان طريقاً جافّاً، فقيراً، ريفيّاً.

ومن المزرعة رآهم مانويل روكا.

اقترب من النافذة. في البداية رأى عمود التراب يرتفع خلف خيال الذرة، ثم سمع ضوضاء محرك السيارة. لم يعد أحد يملك سيارة في تلك الأنحاء. كان مانويل روكا يعرف ذلك. رأى المرسيدس تظهر من بعيد ثم تتوارى خلف أشجار البلوط. اكتفى بذلك.

عاد تجاه المائدة، ووضع يده على رأس ابنته، وقال لها: استيقظي. أخذ مفتاحاً من جيبه، ووضعه على المائدة وأشار برأسه لابنه. أجاب الابن: حالاً.

كانا طفلين... مجرد طفلين.

وعند مفترق الغدير، تجنبت السيارة الطريق المتجه إلى المزرعة واستأنفت السير تجاه ألفاريز، متظاهرة بالابتعاد. كان الرجال الأربعة يرتحلون في صمت. كان الذي يقود السيارة يرتدي زيّاً ما، وكان الرجل الآخر الذي يجلس جواره يرتدي حلة بيضاء اللون. كان يجلس ممدداً، ويدخن سيجارة فرنسية.

قال: لتبطئ.

سمع مانويل روكا الضوضاء وهي تبتعد تجاه ألفاريز، وفكّر: كيف يظنون أنه ستنطلي عليّ خدعتهم هذه؟ رأى ابنه وهو يدخل الحجرة ومعه بندقية في يده وأخرى أسفل ذراعه. قال له: ضعهما هنا، ثم التفت نحو الابنة: تعالي يا نينا، لا تخافي، تعالي إلى هنا.

أطفأ الرجل الأنيق السيجارة على تابلوه (تابلوه ـ حاجبة) المرسيدس، ثم أمر مَن يقودها بالتوقف. قال: هنا مكان مناسب، وأخْرِسْ هذه الضوضاء الرهيبة. وكانت ضوضاء فرملة اليد كأنها صوت سلسلة تُركت لتسقط في بئر. ثم ساد الصمت، وبدا كأن الريف قد ابتلعه هدوء مُزمن.

قال الشخص الجالس في الخلف: كان من الأفضل الذهاب إليه مباشرةً؛ الآن سيكون لديه الوقت الكافي ليهرب. كان ممسكاً بمسدس في يده، كان مجرد صبي، وكان يُدعى تيتو.

قال الرجل الأنيق: لن يهرب؛ لقد ضاق من الفرار، لنذهب.

حرّك مانويل روكا السلال المليئة بالفاكهة وانحنى ثم رفع غطاءً سرياً لأحد المخازن ونظر بالداخل، كان مكان أكبر بقليل من ثقب كبير محفور في الأرض، كأنه جحر حيوان.

ـ استمعي إليّ يا نينا، الآن سيصل بعض الأشخاص ولا أريدهم أن يروكِ، لا بد أن تختبئي هنا في الداخل، من الأفضل أن تختبئي هنا وأن تنتظري حتى يذهبوا بعيداً، هل فهمتِ ما أقوله؟

ـ نعم.

ـ يجب عليكِ فقط البقاء صامتة هنا.

ـ ...

ـ مهما حدث لا تخرجي. يجب ألا تتحركي، يجب فقط أن تلزمي الهدوء وأن تنتظري.

ـ ...

ـ كل شيء سيكون على ما يرام.

ـ نعم.

ـ استمعي إليّ. يمكن أن أضطر إلى الذهاب مع أولئك الأشخاص. لا تخرجي إلا عندما يأتي أخوكِ ليأخذكِ. هل فهمتِ؟ أو حتى تشعري أنه لا وجود لأحد وأن كل شيء قد انتهى.

ـ نعم.

ـ يجب أن تنتظري ألا يكون هناك أيّ شخص.

- ...

- لا تخافي يا نينا، لن يحدث لكِ أي شيء. حسناً؟

- نعم.

- أعطيني قُبلة.

قبّلت الطفلة أباها على جبهته، الذي بدوره ربّت بيده على شعرها.

- كل شيء سيكون على ما يرام يا نينا.

ثم مكث هناك، كأن عليه أن يفعل شيئاً آخر، أو أن يقول شيئاً آخر.

قال: لم يكن هذا ما أردت. تذكري دائماً أنني لم أكن أريد هذا.

بحثت الطفلة ببراءة بداخل عين أبيها عن شيء يساعدها على أن تفهم، لم ترَ شيئاً. انحنى أبوها وقبّلها.

- هيا اذهبي يا نينا. هيا انزلي هنا.

تركت الابنة نفسها لتسقط في الحفرة. كانت الأرض قاسية وجافة، واستلقت هناك.

- انتظري، خذي هذا.

أعطاها أبوها غطاءً، بسطته على الأرض، ثم عادت لتستلقي.

سمعت أباها يقول شيئاً ثم رأت غطاء المخزن وهو ينخفض.

أغلقت عينيها ثم فتحتهما، ومن بين ألواح الأرضية كانت تدخل لها شرائط من الضوء. سمعت أباها وهو لا يزال يتحدث معها، ثم سمعت صوت السلال وهي تُجَرّ مرة أخرى على الأرض.

ازداد الظلام هناك في الأسفل، سألها والدها عن شيء وأجابت. كانت مستلقية على أحد جانبيها، منكمشة حول نفسها كأنها في الفراش حيث لم يكن لديها شيء آخر لتفعله سوى أن تنام وتحلم. سمعت والدها يقول لها شيئاً آخر برقّة وهو ينحني أرضاً، ثم سمعت صوت طلقة مسدس، وصوت النافذة تتهشم.

ـ روكا! تعالَ إلى الخارج يا روكا... لا ترتكب حماقات وتعالَ خارجاً.

نظر مانويل روكا إلى ابنه، وزحف نحوه، حريصاً على ألا يكشف نفسه، وامتدت يده لتلتقط البندقية من فوق المائدة.

ـ يا إلهي! ابتعد من هنا، اذهب لتختبئ في مخزن الحطب، لا تخرج منه ولا تدَع أحداً يسمعك، لا تفعل أي شيء. خذ معك البندقية وعبّئها.

كان الطفل يحدّق إليه دون أن يتحرك.

ـ تحرّك من هنا، افعل ما أقوله لك.

ولكنّ الطفل تحرّك خطوة تجاه أبيه.

سمعت نينا أصوات انهمار طلقات تدمر المنزل فوقها، كانت

الأتربة وقطع الزجاج تتساقط إلى أسفل من بين الفتحات الضيقة للأرضية. لم تتحرك.

سمعت صوتاً يصرخ من الخارج:

ـ ماذا تفعل إذاً يا روكا، هل يجب علينا أن ندخل لنأخذك؟ إنني أتحدث معك يا روكا، هل يجب أن أدخل لآخذك؟

كان الطفل لا يزال واقفاً في مكان مكشوف، كان قد أمسك بالبندقية ولكنه كان قد تركها مدلاة، كان يؤرجحها وهو ممسك بها في إحدى يديه.

قال أبوه: اذهب من هنا، ألا تسمعني؟ اذهب من هنا حالاً. اقترب منه الطفل أكثر، كان كل ما يفكر فيه هو أن ينحني، وأن يلقي بنفسه بين أحضان أبيه، كان يتخيل شيئاً من هذا القبيل.

صوّب الأب بندقيته نحوه وتحدث معه بصوت منخفض، ولكن بقسوة:

ـ اذهب من هنا وإلا قتلتك بيدي.

سمعت نينا مرة أخرى ذلك الصوت: **إنه الإنذار الأخير يا روكا.**

انطلقت طلقات متتابعة وأطاحت بالمنزل من الأمام والخلف كأنها البندول، وبدا أنها لن تنتهي أبداً، من الأمام ومن الخلف كأنها أضواء فنار على صخر بحر أسود، صبور.

أغمضت نينا عينيها والتصقت بالغطاء، وانكمشت أكثر جاذبةً

ركبتيها تجاه صدرها. كانت تحب البقاء في هذا الوضع؛ كانت تشعر ببرودة الأرض أسفل جنبها كأنها تحميها، كانت تشعر بأنها لن تتخلى عنها، وشعرت بجسدها المضموم والملفوف حول نفسه كالقوقعة، وكانت تحب هذا الوضع، كأن جسدها الصَّدَفة والحيوان في آنٍ واحد يحمي نفسه، كان هذا بالنسبة إليها كل شيء، لا شيء يمكنه أن يؤذيها ما دامت في ذلك الوضع. فتحت عينيها من جديد، وقالت لنفسها: لا تتحركي، أنتِ سعيدة هكذا.

رأى مانويل روكا ابنه وهو يتوارى خلف الباب، ثم رفع نفسه بقدر ما يكفي ليلقي نظرة خارج النافذة. ثم فكّر: حسناً. نظر إلى نافذة أخرى، نهض وصوب بندقيته بسرعة وأطلق النار.

أخذ الرجل ذَو الحلّة البيضاء يسب ويلعن وألقى بنفسه أرضاً قائلاً: انظر ماذا يفعل هذا السافل! وأخذ يهز رأسه، انظر ماذا يفعل هذا الفاسق. واستمع إلى صوت طلقتين تأتيان من تجاه المزرعة، ثم سمع صوت مانويل روكا.

ـ لتذهب إلى الجحيم يا ساليناس.

بصق الرجل ذو الحلة البيضاء على الأرض، وقال له لتذهب أنت إلى الجحيم أيها المجرم، وألقى بنظره على يمناه ورأى إل جوري متجهماً وهو منبطح خلف كتلة من الخشب. أشار إليه ليطلق النار. استمر إل جوري في تجهمه، كان يمسك المدفع الرشاش الصغير في يمناه، وبيسراه كان يبحث عن سيجارة في

جيبه، لم تكن تبدو عليه العجلة. كان قصيراً ونحيفاً، كان يضع فوق رأسه قبعة قذرة، وفي قدميه زوج أحذية ضخمة كمتسلقي الجبال، نظر إلى ساليناس، عثر على السيجارة، وضعها بين شفتيه، كان الجميع يطلقون عليه اسم إل جوري. نهض وأخذ يطلق النيران.

شعرت نينا بالطلقات وهي تخترق المنزل من فوقها، ثم الصمت، وانطلقت بعد ذلك طلقات أخرى متتابعة لمدة أطول. فتحت عينيها، أخذت تنظر إلى الفتحات الضيقة فوقها، أخذت تنظر إلى الضوء والتراب الذي يتساقط من بينها، ومن حين لآخر كانت ترى ظلاً يتحرك، كان ذلك ظلّ أبيها.

استلقى ساليناس بجوار إل جوري، خلف الكتلة الخشبية.

ـ كم من الوقت يستغرق تيتو ليدخل؟

رفع إل جوري كتفيه، واستمر في التجهم. ألقى ساليناس نظرة على المزرعة.

ـ نحن من هنا لن نتمكن أبداً من الدخول إلى هناك، لا بد أن ينجح هو في الدخول وإلا سيكون موقفنا سيئاً.

أشعل إل جوري السيجارة، ثم قال إن الصبي ذكي وسينجح في ذلك. قال إنه يعرف كيف يزحف كالثعبان، وإنه يجب الوثوق به.

ثم قال: والآن لنقُم نحن ببعض الضوضاء.

رأى مانويل روكا إل جوري وهو يظهر من خلف كومة

الخشب ويلقي بنفسه أرضاً. ثم انطلقت الرصاصات المتتابعة دقيقة واستمرت طويلاً.

ففكر قائلاً: يجب أن أبتعد من هنا، ولكنّ الذخيرة، أول شيء الذخيرة، أزحف على الأرض حتى المطبخ ومن هناك أخرج مباشرةً إلى الحقول. ولكن هل يمكن أن يكونوا قد وضعوا أحداً خلف المنزل؟ إن إل جوري ليس غبياً، لا بد أنه ترك أحداً هناك أيضاً، ولكنهم لا يطلقون النيران من ذلك الاتجاه. إذا كان هناك أحد لأَطلقَ النيران.

ربما لا يتولى إل جوري زمام الأمر، ربما كان ذلك الجبان ساليناس، إذا كان ساليناس هو العقل المدبر فيمكنه أن يفعل ذلك. إن ساليناس لا يفقه شيئاً. لتمكث خلف مكتبك ياساليناس، إنه الشيء الوحيد الذي تتقن عمله. اذهب إلى الجحيم، ولكنّ الذخيرة قبل أي شيء.

أخذ إل جوري يطلق النيران.

الذخيرة والنقود، ربما استطعت أن آخذ النقود أيضاً معي. لا بد أن أهرب على الفور. يا للغباء، الآن عليّ أن أذهب بعيداً من هنا أيضاً، إذا توقف فقط للحظة واحدة. ولكن من أين تمكن من الحصول على مدفع رشاش؟ لديهم سيارة ومدفع رشاش. لقد أصبحت ثرياً إذاً يا ساليناس. الذخيرة، والآن النقود...

أطلق إل جوري الرصاص.

كانت نينا تسمع النافذة وهي تتحطم إثر طلقات الرشاش، ثم

شفرات حادة من الصمت بين كل طلقة وأخرى، وفي الصمت كان خيال أبيها يتمزق بين الزجاج. وبإحدى يديها ضبطت تنورتها، كانت تبدو كأنها فنان منكبّ ليضع اللمسات الأخيرة لعمله الفني، فكانت مستلقية على أحد جانبيها محاولةً أن تضع اللمسات الأخيرة.

أخذت تضبط وضع قدميها حتى شعرت أنهما مطبقتان تماماً، وأن فخذيها مضمومتان، وأن ركبتيها كأنهما فنجانان متوازنان أحدهما فوق الآخر، وأن كعبيها لا يفصل بينهما أي شيء.

وأعادت فحص «سيمترية» نعليها، وهما متجاوران كأنهما في «فاترينة» العرض، ولكنهما مستلقيان، ربما من التعب.

كان يعجبها هذا النظام، فإذا كنتَ قوقعة فالنظام مهم جدّاً، وإذا كنتَ غلافاً وحيواناً، يجب أن يكون كل شيء على أكمل وجه. الدقة هي سبيل الخلاص.

سمعت توقف اندفاع طلقات استمرت طويلاً، بعد ذلك على الفور سمعت صوت صبي:

ـ اترك بندقيتك يا روكا.

استدار مانويل روكا، ورأى تيتو واقفاً على بُعد بضعة أمتار منه، وكان يصوب بمسدس تجاهه.

ـ لا تتحرك وألقِ بهذه البندقية.

ومن الخارج انطلقت مجموعة طلقات أخرى، ولكنّ الصبي

لم يتحرك، ظل هناك، واقفاً، رافعاً مسدسه. وخلف تلك الأمطار من الطلقات مكث الاثنان بلا حركة، ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر، كأنهما حيوان واحد توقف عن التنفس. أخذ مانويل روكا وهو مستلقٍ على الأرض يحدق إلى عيني الصبي الواقف على قدميه في مرمى الطلقات. حاول أن يفهم هل ذلك طفل أو جندي؟ هل هذه بالنسبة إليه المرة الألف أو أول مرة؟ وهل معلّق في ذلك المسدس عقل أم فقط الغريزة؟ ورأى ماسورة المسدس ترتعش في حركة غير محسوسة، كأنها ترسم بقعاً دقيقة في الهواء.

قال: اهدأ أيها الصبي.

وبهدوء وضع البندقية على الأرض، وبركلة من قدميه أزاحها إلى منتصف الغرفة، وقال: كل شيء على ما يرام أيها الصبي.

لم يتوقف تيتو عن التحديق فيه، ثم قال: اخرس يا روكا ولا تتحرك.

وبدأت طلقات أخرى. كان إل جوري يعمل بمنهج معين، انتظر الصبي حتى انتهى، ودون أن يخفض بندقيته أو عينيه، وعندما ساد الصمت مرة أخرى، ألقى نظرة في اتجاه النافذة.

ـ ساليناس، لقد قبضت عليه. توقف، لقد قبضت عليه.

وبعد ثانية: **أنا تيتو، لقد قبضت عليه.**

قال ساليناس: تباً، لقد نجح!

ابتسم إل جوري من دون أن يلتفت. كان يتأمل المدفع

الرشاش كأنه نحته هو، في ساعات فراغه، من فرع شجرة دردار.

بحث تيتو عنهما في ضوء النافذة.

وببطء ارتفع مانويل روكا بالقدر الكافي، ليستند بظهره إلى الحائط. فكر في المسدس الذي يضغط على جنبه موضوعاً في سرواله، وحاول أن يتذكر إذا كان معبأ. لمسه بيده، ولم يدرك الصبي أي شيء.

قال سالىناس: لنذهب. استدار حول كومة مكدسة من الخشب وتوجها مباشرةً إلى المزرعة.

كان سالىناس يسير وهو منحنٍ قليلاً، كما رآهم يفعلون في الأفلام. كان مضحكاً مثل كل الرجال الذين يتقاتلون، دون أن يدرك ذلك. كانا يعبران الجرن عندما سمعا صوت عيار ناري يأتي من الداخل.

أسرع إل جوري ووصل أمام باب المزرعة وفتحه بركلة.

بركلة كان قد فتح باب المخزن منذ ثلاث سنوات، ثم دخل ورأى زوجته مشنوقة ومدلاة من السقف، وابنتيه ورأسيهما محلوقان وأفخاذهما ملطخة بالدماء.

فتح الباب بركلة. دخل ورأى تيتو واقفاً، ومسدسه مصوب إلى ركن في الغرفة.

قال الصبي: كان عليّ أن أفعل هذا، معه مسدس.

نظر إل جوري إلى الزاوية، كان روكا يرقد على ظهره وهو ينزف من إحدى ذراعيه. أعتقد أن لديه مسدساً ـ أضاف الصبي ـ مخبَّأً في مكان ما. اقترب إل جوري من مانويل روكا.

نظر إلى الجرح في ذراعه، ثم نظر إليه في وجهه وقال: أهلاً يا روكا.

وضع قدمه فوق ذراع روكا المجروحة وبدأ في الضغط ليسحقها.

صرخ روكا من الألم واستدار، تزحلق المسدس من سرواله، انحنى إل جوري ليلتقطه.

قال: إنك ماهر أيها الصبي.

وأشار تيتو بالموافقة، وأدرك أن ذراعه لا تزال ممدودة إلى الأمام ومسدسه في قبضته مصوباً تجاه روكا. خفض ذراعه، وشعر بأصابعه ترتخي من فوق المسدس. كانت يده كلها تؤلمه، كأنه أخذ يلكم الجدار بقبضته. فكر في نفسه: اهدأ.

خطر ببال نينا تلك الأغنية التي كانت تبدأ بذلك المقطع: عدّ السحب سيمرّ الوقت. ثم كان هناك مقطع ما يتحدث عن النسر، وكانت الأغنية تنتهي بالأرقام، الواحد تلو الآخر، من واحد إلى عشرة، ولكن كان من الممكن أيضاً العدّ حتى المائة أو الألف. عدّت هي في إحدى المرات حتى مائتين وثلاثة وأربعين.

فكّرت في أنها الآن ستقوم من هنا وستذهب لترى من كان

هؤلاء الرجال وماذا كانوا يريدون، ربما بعد أن تستكمل الأغنية ستقوم، وإذا لم تنجح في فتح المخزن ستصرخ، وهكذا سيأتي أبوها ليأخذها. ولكنها مكثت كما كانت، مستلقية على أحد جانبيها، وركبتاها مضمومتان إلى صدرها، ونعلاها متوازيان الواحد فوق الآخر، ووجنتها تشعر بصقيع الأرض عبر الصوف الخشن للغطاء.

أخذت تغني تلك الأغنية بصوت منخفض: عدّ السحب، سيمر الوقت...

قال ساليناس: ها نحن نتقابل من جديد يا دكتور.

نظر إليه مانويل روكا من دون أن ينطق. كان يضغط بقطعة قماش على الجرح. كانوا قد أجلسوه في وسط الغرفة على صندوق خشبي. كان إل جوري يقف خلفه، في مكان ما، ممسكاً بالمدفع الرشاش في يده، وكان الصبي يقف أمام الباب ليتأكد من عدم اقتراب أي شخص من الخارج، وكان من حين إلى آخر يستدير لينظر إلى ما يحدث بالداخل.

كان ساليناس يسير ذهاباً وإياباً، وكان ممسكاً بسيجارة فرنسية النوع بين إصبعيه.

قال: لقد أضعت لي كثيراً من الوقت، أتعلم ذلك؟

رفع مانويل روكا نظره إليه وقال: أنت مجنون يا ساليناس.

ـ لقد قطعنا ثلاثمائة كيلو متر لنأتي ونُخرجك من جحرك هذا. إنه طريق طويل.

ـ قل ماذا تريد واذهب من هنا.

ـ ماذا أريد؟

ـ ماذا تريد يا ساليناس؟

ضحك ساليناس.

ـ أريدك أنت يا دكتور.

ـ أنت مجنون، فالحرب قد انتهت.

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت الحرب قد انتهت.

ـ انحنى ساليناس فوق مانويل روكا.

ـ مَن انتصر يقرر ذلك، يقرر متى تنتهي الحرب.

هز مانويل روكا رأسه.

ـ إنك تقرأ الروايات أكثر من اللازم يا ساليناس، فالحرب قد انتهت، ألا تريد أن تفهم؟

ـ لم تنتهِ حربك ولا حربي يا دكتور.

عندئذٍ بدأ مانويل روكا يصرخ بأنهم لا يجب أن يلمسوه، وأن الأمر سينتهي بهم في السجن، وأنه سيتم القبض عليهم وسيُزَجّ بهم في السجن ليقضوا ما تبقى من أعمارهم فيه، وأخذ يصرخ في الصبي إذا كانت تروقه فكرة أن يشيخ خلف القضبان، يحصي الساعات ويقوم بخدمة أحد القتلى، مثيري الاشمئزاز.

نظر إليه الصبي من دون أن يجيبه، عندئذٍ أخذ مانويل روكا يصرخ فيه بأنه غبي، وبأنهم خدعوه، وأنه يضيع حياته هباءً...

ولكنّ الصبي لم يقل أي شيء، وكان سالييناس يضحك، كان ينظر إلى إل جوري ويضحك، كان يبدو كأنه يستمتع، وفي النهاية عاد للجدية مرة أخرى، ووقف قبالة مانويل روكا وقال له أن يخرس. وضع يده في سترته وأخرج منها مسدساً.

ثم قال لروكا إنه لا يجب أن يقلق عليهم؛ لأن لا أحد سيعرف أي شيء.

ـ ستختفي تماماً، ولن يتحدث عنك أحد بعد الآن، فلقد هجرك أصدقاؤك يا روكا، وأصدقائي أنا مشغولون جدّاً، وبقتلك سنكون قد صنعنا معروفاً للجميع. إنك ضائع لا محالة يا دكتور.

ـ إنكم مجانين.

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول إنكم مجانين.

ـ قُلها مرة أخرى يا دكتور، يسعدني أن أسمعك تتحدث عن المجانين.

ـ اذهب إلى الجحيم يا سالييناس.

ـ قام سالييناس بانتزاع مغلاق مسدسه.

ـ إذن استمع إليّ يا دكتور. أتعرف يا دكتور كم مرة أطلقت

النار خلال السنوات الأربع للحرب؟ مرتين؛ فأنا لا أحب إطلاق النيران، ولا أحب الأسلحة، لم أرغب أبداً أن أحملها معي، ولا يسليني القتل، لقد خضت حربي كلها وأنا جالس خلف مكتبي، ساليناس الفأر، أتتذكره؟ كان أصدقاؤك يطلقون عليّ هذا الاسم، خدعتهم جميعاً، كنت أفك شفرات رسائلهم وأطلق جواسيسي على الأغبياء، كانوا يحتقرونني، وكنت أنا أخدعهم، واستمر الحال هكذا أربع سنوات.

ولكن الحقيقة هي أنني أطلقت النار فقط مرتين، مرة كان الوقت ليلاً، وأطلقت النار في الظلام بلا هدف، والمرة الثانية كانت في اليوم الأخير للحرب؛ أطلقت النار على أخي.

اسمعني جيداً، دخلنا ذلك المستشفى قبل أن يصل إليه الجيش، أردنا أن ندخل نحن لنقتلكم جميعاً لكننا لم نجدكم، كنتم قد هربتم، أليسَ كذلك؟ لقد توقعتم ما سيحدث، فخلعتم قمصان السجّانين وهربتم، تاركين كل شيء هناك، هكذا كما هو، الأسرّة في كل مكان حتى في الممرات، والمرضى في كل مكان، ولكنني أتذكر جيداً أنه لم يكن هناك صوت أنين، ولا صوت ضوضاء، لا شيء، هذا ما لن أنساه أبداً، كان هناك صمت مطبق، سأظل أستمع إليه كل ليلة في حياتي، صمت تام، كان أصدقائي هناك في تلك الأسرّة، وكنا ذاهبين لنحررهم، كنا نريد إنقاذهم، ولكن عندما وصلنا استقبلونا بالصمت، وكان ذلك لأنه لم تعد لديهم القوة حتى يئنوا. فلنقُل الحقيقة كلها، إنه لم تعد لديهم الرغبة في البقاء على قيد

الحياة، لم يرغبوا في أن ننقذهم، هذه هى الحقيقة، لقد دمرتموهم تماماً حتى إنه لم تعد لديهم رغبة في شيء سوى الموت، في أسرع وقت ممكن، لم يرغبوا في أن ننقذهم، أرادوا فقط أن نقتلهم.

عثرت على أخي على أحد الأسرّة في وسط الآخرين، هناك في ذلك المصلى الصغير في أسفل، نظر إليّ كأنني سراب بعيد، حاولت أن أتحدث إليه ولكنه لم يُجِبني، لم أكن أفهم هل تعرف إليّ أم لا. انحنيت نحوه، وتوسلت إليه أن يجيبني، طلبت منه أن يقول لي شيئاً، كانت عيناه زائغتين، وأنفاسه بطيئة، كأنه ينازع موتاً بطيئاً، كنت منحنياً نحوه عندما سمعت صوته يقول لي «أرجوك»، ببطء شديد، بمجهود يفوق الجهد الإنساني، بصوت كأنه قادم من الجحيم، شيء لا علاقة له بصوته، فلقد كان صوت أخي رناناً، كان عندما يتحدث يبدو كأنه يضحك، ولكن ذلك الصوت كان شيئاً آخر، قال ببطء «أرجوك»، وفقط بعد قليل أضاف «اقتلني». لم يكن في عينيه أي تعبير، لا شيء، كأنهما عينا شخص آخر. كان جسده بلا حراك، لم يكن فيه سوى ذلك التنفس البطيء جدّاً يرتفع وينخفض.

قلت له إننى سآخذه بعيداً من هنا، وإن كل شيء قد انتهى، وإنني سأهتم بكل شيء، سأهتم به، ولكن كان هو يبدو غارقاً في جحيمه، عاد إلى حيث كان، قال ما أراد قوله ثم عاد إلى كابوسه، ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ أخذت أفكر كيف يمكنني أن آخذه بعيداً عن هذا المكان، أخذت أنظر حولي لأبحث عن

مساعدة، كنت أريد أن آخذه بعيداً عن هذا المكان، كنت متأكداً من ذلك، إلا أنني لم أستطع أن أتحرك، لم أعد أقوى على الحركة. لا أعرف كم من الوقت مرّ عليّ هكذا، كل ما أتذكره هو أنني في لحظةٍ ما استدرت ورأيت على بُعد أمتار مني إل بلانكو، كان واقفاً بجوار أحد الأسِرّة ومدفعه الرشاش على كتفه، وكان ما يفعله هو الضغط بالوسادة على وجه ذلك الصبي الراقد على الفراش.

كان إل بلانكو يبكي ويضغط بالوسادة، وفي صمت المصلى الصغير كنت أستمع فقط لصوت نحيبه، ولم يكن الصبي يتحرك، لم يصدر أي ضجيج، رحل في صمت، ولكن إل بلانكو كان ينتحب كطفل، ثم رفع الوسادة وأغمض بيديه عيني الصبي. عندئذٍ نظر إليّ. كنت أنظر إليه، ونظر هو إليّ وأردت أن أقول له ماذا تفعل؟ ولكنّ صوتي لم يخرج، وعند تلك اللحظة دخل أحدهم وقال إن الجيش قادم، وإن علينا الهروب من هذا المكان. شعرت بالضياع، لم أكن أرغب في أن يجدني أحد هناك، وسمعت أصوات الآخرين يركضون في الممرات، عندئذٍ رفعت الوسادة من أسفل رأس أخي برقة، ومكثت لبرهة أنظر إلى هاتين العينين المرعبتين، وضعت الوسادة فوق وجهه وبدأت في الضغط، وأخذت وأنا منحنٍ على أخي أضغط بيديَّ على الوسادة، وكنت أستمع لصوت عظام وجه أخي، هناك أسفل، أسفل يديّ، لا يمكن لأحد أن يطلب من أي شخص أن يقوم بشيء كهذا، لم يكن من الممكن طلب شيء كهذا مني.

حاولت أن أقاوم ولكن في لحظة ما توقفت، وأبعدت كل شيء، كان أخي لا يزال يتنفس، ولكنه كان كشيء ينتزع الهواء من عُمق الجحيم. كان شيئاً بشعاً، كانت عيناه شاخصتين وتلك الحشرجة... نظرت إليه وأدركت أنني كنت أصرخ، سمعت صوتي وهو يصرخ، ولكن كان كصوت قادم بعيد، كأنه أنين رتيب ومنهوك، لم أستطع إسكاته، كان ينطلق رغماً عني، كنت ما زلت أصرخ عندما أدركت أن إل بلانكو كان بالقرب مني، لم يقل شيئاً ولكنه كان يمد لي يده بمسدس، وبينما أنا أصرخ، والجميع يهربون، كنا ما زلنا أنا وهو بالداخل، أعطاني المسدس، أخذته، ووضعت فوهته على جبهة أخي، ومن دون أن أتوقف عن الصراخ أطلقت الرصاص.

انظر إليّ يا روكا. قلت لك انظر إليّ، طوال مدة هذه الحرب أطلقت الرصاص فقط مرتين، كانت الأولى ليلاً بلا هدف، والطلقة الثانية كانت قريبة جدّاً، أطلقتها على أخي. وأريد أن أقول لك شيئاً، سأطلق الرصاص مرة أخرى، وستكون الأخيرة.

عندئذٍ عاد روكا ليصرخ من جديد:

ـ أنا لا دخل لي بهذا كله.

ـ أنت لا دخل لك بهذا كله؟

ـ لا دخل لي بأي شيء حدث في المستشفى.

ـ ماذا تقول؟

ـ كنت أفعل ما يأمرونني به.

ـ أنت...

ـ أنا لم أكن هناك عندما...

ـ ماذا تهذي وتقول...

ـ أقسم لك، أنا...

ـ كان ذلك هو مستشفاك أيها الوغد.

ـ مستشفاي؟

ـ كان ذلك مستشفاك. كنت أنت الطبيب الذي يعالجهم، أنت قتلتهم، أنت دمرتهم، كانوا يرسلونهم إليك فتقضي عليهم...

ـ أنا لم أقم قط...

ـ اخرس.

ـ أقسم لك يا ساليناس...

ـ اخرس!

ـ أنا لم...

ـ اخرس!

وضع ساليناس فوهة المسدس على ركبة روكا ثم أطلق الرصاص، انفجرت ركبته، سقط روكا إلى الخلف والتف حول نفسه وتكور على الأرض صارخاً من الألم.

كان ساليناس يقف فوقه وهو يصوب مسدسه نحوه ومستمراً في الصراخ:

ـ سأقتلك، أفهمت؟ إنني أقتلك الآن أيها الوغد، أقتلك.

تقدم إل جوري خطوة إلى الأمام، وكان الصبي الواقف أمام الباب ينظر في صمت.

أخذ ساليناس يصرخ، أصبح رداؤه الأبيض ملطخاً بالدماء. أخذ يصرخ بصوت غريب حاد، كأنه البكاء، أو كأنه لم يعد يستطيع التنفس، كان يصرخ أنه سيقتله، ثم استمعوا جميعاً إلى صوت مفاجئ يقول شيئاً بصوت منخفض.

ـ اذهبوا من هنا.

استداروا فرأوا طفلاً واقفاً قبالتهم في الجزء الآخر من الغرفة، كان ممسكاً بندقية في يده، وكان يصوبها تجاههم، ثم قال مرة أخرى ببطء: اذهبوا من هنا!

كانت نينا تسمع صوت أبيها الخشن الذي كان يئن من الألم، ثم سمعت صوت أخيها، وفكرت أنه عندما تخرج ستذهب إلى أخيها وستقول له إن صوته جميل جدّاً؛ لأنه بدا لها بالفعل صوتاً جميلاً جدّاً، صوتاً نظيفاً وطفوليّاً، ذلك الصوت الذي سمعته يهمس ببطء: اذهبوا من هنا...

ـ **ولكن ما هذا...**

ـ إنه ابنه يا ساليناس.

ـ ما هذا الهراء الذي تقوله؟

قال إل جوري: إنه ابن روكا.

أطلق ساليناس لعنة ما، ثم أخذ يصرخ أنه لم يكن من المفترض أن يكون هناك أحد سواه، «**لم يكن من المفترض أن يكون هنا أحد سواه، ما هذه القصة، قلتم لي لا أحد غيره**»، أخذ يصرخ ولم يكن يعرف أين يصوب مسدسه، كان ينظر إلى إل جوري ثم إلى الصبي، ثم في النهاية نظر إلى الطفل الممسك بالبندقية، ثم صرخ قائلاً له إنه غبي، وإنه لن يخرج حيّاً من هنا إذا لم يضع في الحال تلك البندقية اللعينة أرضاً.

مكث الطفل في صمت ولم يخفض البندقية.

عندئذٍ توقف ساليناس عن الصراخ، خرج من فمه صوت هادئ متوحش، وقال للطفل إنه الآن عرف من أي نوع من الرجال كان أبوه، الآن عرف أنه قاتل، وأنه قتل عشرات الأشخاص، أحياناً كان يسممهم تدريجيّاً بأدويته، ولكن بعضاً منهم قتلهم بأن فتح صدورهم ثم تركهم هناك ليموتوا.

قال للطفل إنه رأى بعينيه صبية يخرجون من ذلك المستشفى وقد احترق مخهم، كانوا يسيرون بصعوبة، لم يكونوا يتحدثون، وأصبحوا كالأطفال البلهاء. قال له إنهم كانوا يسمّون أباه الضبع، وإن أصدقاءه هم من كانوا يطلقون عليه هذا الاسم، وكانوا يقولون له هذا وهم يضحكون. أخذ روكا يتحشرج على الأرض، بدأ يهمس ببطء: «النجدة»، كأنه يصرخ

من بعيد ـ «النجدة، النجدة، النجدة» كأنه يصلي. كان يشعر باقتراب الموت. لم ينظر إليه ساليناس، أخذ يستكمل حديثه للطفل. كان الطفل يستمع إليه بلا حركة، وفي النهاية قال له ساليناس إن هذه هي الحقيقة، وإنه لم يعد بالإمكان عمل أي شيء، ولا فائدة من الإمساك بهذه البندقية بين يديه. نظر إليه في عينيه وهو منهوك، وسأله إذا كان قد فهم مَن ذلك الرجل، وإذا كان يفهم بالفعل ما قاله، وبيده كان يشير نحو روكا، وأراد أن يعرف هل فهم الصبي مَن كان هذا الرجل في الحقيقة.

استجمع الطفل كل ما كان يعرفه، وكل ما فهمه من الحياة وأجابه:

ـ **إنه أبي.**

ثم أطلق طلقة واحدة، في الهواء.

أجاب إل جوري تلقائياً بإطلاق النار. رفعت الطلقات الطفل عن الأرض وألصقته بالحائط، فصار الطفل مجرد خليط من الرصاص والعظام والدماء، كان كما فكر تيتو «كأنه الطير الذي أُصيب في أثناء طيرانه».

ألقى ساليناس بنفسه على الأرض، ووجد نفسه ممدداً بجوار روكا، وللحظة نظر الرجلان كلٌّ منهما في عين الآخر، ومن حنجرة روكا خرج صراخ غليظ بشع. تراجع ساليناس إلى الوراء زاحفاً على الأرض. استدار على ظهره لينزع عن نفسه نظرة روكا، وأخذ يرتعش كله. كان هناك صمت رهيب حوله، ولا

شيء سوى ذلك الصراخ البشع. ارتفع ساليناس بيديه، ونظر تجاه آخر الغرفة. كان جسد الطفل معلقاً على الحائط، ممزقاً برصاص الرشاش، وكانت البندقية قد طارت بعيداً في زاوية أخرى. رأى ساليناس أن الصبي كان مقلوب الرأس ورأى أسنانه الصغيرة البيضاء.

عندئذٍ ترك نفسه ليسقط إلى الوراء على ظهره.

فوجد أمام عينيه أخشاب السقف، دعامات خشبية داكنة، كان جسده كله يرتعش، لم يستطع أن يثبت يديه أو قدميه، لا شيء.

خطا تيتو خطوتين نحوه، ولكن إل جوري أوقفه بإشارة.

أخذ روكا يصرخ صراخاً قذراً، كحشرجة الموت.

قال ساليناس هامساً: أسكِتْه.

قال هذا وهو يحاول تثبيت أسنانه التي كانت تصطك كالمجنونة. بحث إل جوري عن عينيه ليفهم ماذا يريد.

كانت عينا ساليناس تحدقان في السقف؛ دعامات خشبية داكنة، قديمة.

كرر: أسْكِتْه.

خطا إل جوري خطوة إلى الأمام. كان روكا يصرخ راقداً وسط دمائه، وفمه مفتوح ببشاعة.

وضع إل جوري فوهة الرشاش في حنجرته، استمر روكا في الصراخ بالرغم من حديد فوهة الرشاش البارد.

أطلق إل جوري النيران، طلقات قليلة، جافة، الأخيرة في حربه.

قال ساليناس مرة أخرى: أسكِتْه.

سمعت نينا الصمت المخيف، عندئذٍ ضمت يديها ووضعتهما بين قدميها، وأخذت تنثني أكثر وقرّبت ركبتيها من رأسها، وأخذت تفكر، الآن سينتهي كل شيء، سيأتي أبوها ليأخذها وسيذهبون جميعاً للعشاء. وفكرت أنهم لن يتحدثوا مرة أخرى عما حدث؛ لأنهم سينسونه سريعاً، فكرت في ذلك لأنها لا تزال طفلة، ولم يكن بإمكانها معرفة شيء.

قال إل جوري: الطفلة.

كان ممسكاً بذراع ساليناس ليساعده على الوقوف، قال له هامساً:

ـ الطفلة.

كانت نظرة ساليناس فارغة، بشعة.

ـ أي طفلة؟

ـ ابنة روكا. إذا كان الصبي هنا ربما تكون هي أيضاً موجودة.

تمتم ساليناس شيئاً، ثم بحركة مفاجئة أبعد إل جوري عنه،

استند على المائدة ليقف على قدميه. كان حذاؤه غارقاً بدماء روكا.

أشار إل جوري لتيتو، ثم توجه إلى المطبخ، وفي أثناء مروره أمام الطفل انحنى وأغمض عينيه، ليس كأب، ولكن كشخص يطفئ النور عند خروجه من حجرةٍ ما.

تذكر تيتو عينَي أبيه. في أحد الأيام طرق بعض الأشخاص على باب المنزل، لم يكن تيتو قد رآهم من قبل، ولكنهم قالوا له إن لديهم رسالة له، ثم تركوا له كيساً من القماش، عندما فتحه وجد بداخله عينَي أبيه، ثم قالوا له لك أن تقرر أيها الصبي مع أي جانب أنت، ثم تركوه ورحلوا.

رأى تيتو ستارة مغلقة في الجانب الآخر للغرفة، نزع أمان المسدس واقترب، حرّك الستارة، دخل الغرفة الصغيرة، كانت هناك فوضى كبيرة، مقاعد مقلوبة، صناديق، معدات عمل، وسلال مليئة بفاكهة عفنة. كانت هناك رائحة قوية لأشياء فاسدة، ورطوبة، وعلى الأرضية كان التراب غريباً، كان يبدو كأن أحداً قد مسحها بقدميه، أو شيء آخر.

سمع إل جوري من الناحية الأخرى من المنزل يطلق رصاص رشاشه على الجدران ليبحث عن الأبواب الخفية. لا بد وأن ساليناس لا يزال هناك مستنداً على المائدة يرتعش. حرك تيتو سلة من الفواكه، ورأى في الأرضية فتحةً ما. أخذ يضرب بقوة بكعب حذائه ليستمع إلى نوع الضوضاء. حرك سلتين

أخريين، كانت هناك فتحة صغيرة مصنوعة بعناية. رفع تيتو نظره، ومن نافذة صغيرة رأى الظلام في الخارج. لم يكن قد أدرك أن الليل قد حلّ بالفعل، وفكّر أنه حان الوقت ليرحلوا عن هذا المكان، ثم ركع على الأرض ورفع غطاء السقف، كانت هناك طفلة في الداخل منكمشة على أحد جانبيها، ويداها مختبئتان بين فخذيها، وكان رأسها منحنياً قليلاً إلى الأمام تجاه ركبتيها. كانت عيناها مفتوحتين.

سدد تيتو مسدسه إلى الطفلة وصرخ: **ساليناس.**

استدارت الطفلة برأسها ونظرت إليه، كانت عيناها قاتمتين، شكلهما غريب، نظرت إليه نظرة محايدة بلا تعبير، كانت شفتاها مطبقتين وتتنفس بهدوء، كانت حيواناً في مخبئه. شعر تيتو بذلك الشعور الذي غمره آلاف المرات وهو يجد ذلك الوضع الدقيق بين دفء الملاءات أو تحت شمس الظهيرة عندما كان طفلاً يعود إليه، الركبتان مثنيتان، ويداه بين قدميه، والقدمان متوازيتان والرأس منحنٍ قليلاً إلى الأمام لتُغلق الدائرة. وفكّر، يا إلهي كم كان شعوراً جميلاً. كانت بشرة الطفلة بيضاء، وكانت استدارة شفتيها رائعة. كانت ساقاها تظهران من خلف تنورة صغيرة حمراء، وكانت كأنها تصميم فني. كان كل شيء منظماً، كان كل شيء تامّاً، دقيقاً.

أدارت الطفلة رأسها من جديد، لتعود لوضعها السابق، أحنته قليلاً إلى الأمام لتغلق الدائرة. أدرك تيتو أن أحداً لم يجبه

من هناك من خلف الستار. لا بد وأنه مرّ بعض من الوقت إلا أن أحداً لم يجبه. سمع صوت إل جوري وهو يضرب برشاشه جدران المنزل، كان صوتاً أجوف، دقيقاً، وفي الخارج كان الظلام. خفض من جديد ذلك الباب الخشبي، ببطء، ولبرهة مكث هناك راكعاً ينظر إذا كان يمكن رؤية الفتاة من فتحات الأرضية. كان يرغب في التفكير ولكنه لم يستطع، فمن حين إلى آخر يكون المرء متعباً جدّاً فلا يستطيع التفكير. نهض، وضع السلال كما كانت، وشعر بقلبه يدق بقوة.

خرجوا في الظلام كأنهم سكارى. إل جوري يسند ساليناس دافعاً إياه إلى الأمام، وتيتو يسير خلفهما، وفي مكان ما تنتظرهم سيارة مرسيدس قديمة. ساروا عشرات الأمتار من دون أن يتبادلوا كلمة واحدة، ثم قال ساليناس شيئاً لإل جوري، فعاد إل جوري مرة أخرى إلى المزرعة. لم يكن يبدو مقتنعاً ولكنه عاد. استند ساليناس إلى تيتو، وقال له أن يسير، سارا بجوار كومة الحطب وتركا الطريق ليدخلا في مدق بين الحقول. كان الصمت يلف كل شيء حولهما، ولذلك لم يستطع تيتو أن يقول العبارة التي كانت في ذهنه والتي كان قد قرر أن يقولها، إنه لا تزال بالداخل طفلة. كان متعباً، وكان الصمت ثقيلاً. توقف ساليناس. كان يرتعش ولا يقوى على السير، همس تيتو له شيئاً ثم استدار ونظر إلى الخلف تجاه المزرعة، رأى إل جوري وهو يجري نحوهما، ورأى خلفه المزرعة التي كانت تقبع في الظلام مشتعلة بحريق يلتهمها.

كانت النيران تندلع من كل مكان وكانت أعمدة من الدخان الأسود تتصاعد ببطء في الليل. ابتعد تيتو عن سالييناس وتحجر وأخذ ينظر. لحق إل جوري بهما ودون أن يتوقف قال هيا أيها الصبي، ولكنّ تيتو لم يتحرك.

قال: ما هذا الذي ارتكبته؟

كان إل جوري يحاول أن يجر سالييناس بعيداً، فكرر عليه أنّ عليهم الذهاب. عندئذٍ أمسكه تيتو من رقبته وبدأ يصرخ في وجهه قائلاً: **ما هذا الذي ارتكبته؟**

قال إل جوري: اهدأ أيها الصبي.

ولكن تيتو لم يتوقف. أخذ يصرخ بقوة أكثر: **ما هذا الذي ارتكبته؟** وهو يهز إل جوري كأنه دمية، ما هذا الذي فعلته؟ رفعه عن الأرض ولم يتوقف عن أن يهزه في الهواء: «ما هذا الذي فعلته؟». حتى بدأ سالييناس يصرخ أيضاً: «**توقف عن هذا أيها الولد**»، كانوا يبدون كثلاثة مجاذيب تُرِكوا لحالهم على خشبة مسرح أُطفئت أنواره، «**الآن، توقف**».

كان مشهد على مسرح مُدمر.

وفي النهاية دفعا تيتو بالقوة، وكانت ومضات الحريق تنير الظلام. عبروا حقلاً ووصلوا إلى نهاية الطريق يتبعون الطريق القديم، وعندما وصلوا أمام السيارة المرسيدس القديمة، وضع إل جوري يده على كتف تيتو وهمس له قائلاً إنه كان ماهراً، وإن كل شيء قد انتهى الآن، ولكنه لم يتوقف عن ترديد تلك

العبارة، لم يكن يصرخ، ولكنه كان يهمس بصوت يشبه صوت طفل «ما هذا الذي ارتكبناه؟ ما هذا الذي ارتكبناه؟ ما هذا الذي ارتكبناه؟»

وفي الحقل، وقفت مزرعة ماتو رويو القديمة معتمة، تتصاعد منها ألسنة من النيران الحمراء تتراقص في ظلام الليل. كانت البقعة الوحيدة في مشهد السهل الفارغ.

وبعد ذلك بثلاثة أيام وصل رجل بحصان إلى مزرعة ماتو رويو. كان يرتدي أسمالاً وتغطيه الأوساخ. كان حصانه عجوزاً نحيلاً، لم يتبقَ منه سوى جلده وعظمه. كان هناك شيء ما في عينيه حتى إن الذباب كان يتطاير حول سائل أصفر يتساقط على خيشومه.

رأى الرجل جدران المزرعة وهي واقفة بلا جدوى في وسط حريق ضخم مطفأ، كانت تبدو كأنها الأسنان المتبقية في فم رجل مسن. أحرقت النيران أيضاً شجرة بلوط كبيرة كانت منذ أعوام تظلل على المنزل، وكانت تتصاعد من كل شيء رائحة الكارثة.

مكث الرجل فوق سرجه، دار حول المزرعة، اقترب من البئر ومن دون أن يترجل من فوق حصانه أسقط الدلو، ثم سمع الدلو وهو يصفع المياه، رفع نظره تجاه المزرعة، رأى طفلة جالسة على الأرض مستندة إلى ما تبقى من الجدران. كانت تحدق إليه بعينين ثابتتين تلمعان وسط وجه يغطيه الدخان. كانت

ترتدي تنورة قصيرة حمراء. كان جسدها كله مغطى بالخدوش، أو ربما تكون جروحاً.

رفع الرجل الدلو من البئر، كانت المياه سوداء، حركها قليلاً بملعقة الدلو، ولكنّ السواد لم يختفِ، ملأ الملعقة وقرّبها من شفتيه وارتشف جرعة كبيرة. نظر مرة أخرى إلى المياه داخل الدلو، ثم تفل فيه، ثم وضع كل شيء على حافة البئر ونخس بحذائه بطن حصانه.

وصل بالقرب من الطفلة. رفعت رأسها لتنظر إليه، لم يبدُ أنّ لديها شيئاً لتقوله. فحصها الرجل قليلاً، نظر إلى عينيها وشفتيها وشعرها، ثم مد لها يده. قامت وأمسكت بيد الرجل الذي رفعها إلى ظهر الحصان لتجلس خلفه. اعتدل الحصان القذر ورفع خيشومه مرتين، ولكنّ الرجل أصدر صوتاً غريباً بفمه فهدأ الحصان.

وبينما يبتعدان، على مهل، عن المزرعة تحت الشمس الحارقة تركت الطفلة رأسها ليسقط إلى الأمام، وبجبهتها المستندة إلى ظهر الرجل المغطى بالعرق راحت في نوم عميق.

اثنان

أضاءت الإشارة باللون الأخضر فعبرت السيدة الطريق، كانت تسير وهي تنظر إلى الأرض. كانت الأمطار قد توقفت لتوّها، وتركت في فراغات الأسفلت آباراً من المياه تعيد إلى الذهن تلك الأمطار المفاجئة التي تهطل في بداية الربيع. كانت تسير بخطوة راقية، دقيقة تتحكم فيها التنورة الضيقة «للتايور» الأسود. كانت ترى بقع المياه وتتجنبها.

عندما وصلت إلى الرصيف المقابل توقفت. كان بعض الناس يسير بخطوات سريعة للوصول إلى منازله في نهاية الظهيرة، والبعض الآخر يسير على مهل بحرية. كانت المرأة تحب أن تشعر بالمدينة تغرقها، وهكذا مكثت قليلاً هناك، في وسط الرصيف، بطريقة لا يمكن تفسيرها، كأنها امرأة تركها حبيبها هناك فجأة وحدها، غير قادرة على التفكير في شيء.

ثم قررت أن تتجه إلى اليمين، وفي ذلك الاتجاه أخذت تتبع خطوات السير الجماعي. سارت بلا عجلة تنظر إلى واجهات المحلات، ممسكة بوشاح على صدرها، وبالرغم من سنها كانت تسير شامخة واثقة، فتضفي بسلوكها الشاب مسحة نبيلة

على شعرها الأبيض. كانت قد تركت شعرها الأبيض ينسدل على رقبتها وثبتته بمشط قاتم اللون، كصبية.

توقفت قبالة محل للأدوات المنزلية، ومكثت فترة لتنظر إلى قسم أجهزة التليفزيون التي كانت تذيع جميعها التعليق الإخباري نفسه، ولكن بأشكال وألوان مختلفة، تثير فضولها. بدأ فيلم تسجيلي عن بعض المدن المتحاربة فعاودت السير. عبرت شارع «كالي ميدينا» ثم عبرت ميدان «ديفينو سوكورسو»، وعندما وصلت إلى «جاليري فلورنسيا» استدارت لترى انعكاسات الأضواء التي تتجاور بداخل المبنى حتى تخرج من الناحية الأخرى في طريق ٢٤ يوليو. توقفت ورفعت نظرها باحثةً عن شيء ما على الواجهة الحديدية التي كانت تزين المدخل الضخم، ولكنها لم تجد أي شيء. قامت ببضع خطوات بداخل الجاليري، ثم أوقفت رجلاً، سألته المعذرة، ثم سألته عن اسم المكان، أجابها، فشكرته، وقالت له إنه سيتمتع بأمسية جميلة الليلة. ابتسم الرجل.

هكذا أخذت تسير في «جاليري فلورنسيا»، وعند لحظة ما رأت كشكاً صغيراً على بُعد عشرين متراً يبزغ من الحائط الأيسر، مشوّهاً قليلاً الشكل المنسق للجاليري. كان أحد تلك الأكشاك التي تبيع تذاكر اليانصيب. رأت بائع اليانصيب جالساً يقرأ الصحيفة، كان يسندها إلى شيء ما قبالته، ويقرؤها. كانت جوانب الكشك من الزجاج ما عدا ذلك الملاصق للجدران.

وفي الداخل كان يظهر البائع، ومجموعة من الشرائط الملونة المدلاة من أعلى. كان أمامه شباك صغير، ذلك الشباك الصغير الذي يتحدث منه البائع إلى الناس.

أعادت المرأة إلى الخلف خصلة شعر قد تدلت على عينيها، استدارت وللحظة أخذت تراقب فتاة كانت تخرج من أحد المحال وهي تدفع أمامها عربة أطفال، ثم عادت تنظر إلى الكشك.

كان بائع اليانصيب يقرأ.

اقتربت المرأة وانحنت تجاه الشباك الصغير.

قالت: مساء الخير.

رفع الرجل عينيه عن الصحيفة. كان على وشك أن يقول شيئاً، ولكن بمجرد أن رأى وجه المرأة توقف ولم يستكمل، ومكث هكذا ينظر إليه.

ـ كنت أريد شراء تذكرة يانصيب.

ـ أومأ الرجل بالإيجاب، ثم قال شيئاً لا دخل له بأي شيء.

ـ هل سيادتك تنتظرين منذ مدة طويلة؟

ـ لا، لماذا؟

ـ هزَّ الرجل رأسه وأخذ يحدّق إليها وقال: لا شيء، المعذرة.

ـ قالت: كنت أريد تذكرة يانصيب.

ـ عندئذٍ استدار الرجل وأخذ يجوب بيديه بين شرائط الأوراق التي تتدلى وراء كتفيه.

ـ أشارت المرأة إلى واحدة، أطول من بقية الأوراق.

ـ هذا... هل يمكن أن تأخذها من ذلك الصف؟

ـ هذا؟

ـ نعم.

نزع الرجل الورقة، ألقى نظرة على الرقم وأومأ بالموافقة، ووضعها على الرف الخشبي الذي يفصل بينهما.

ـ إنه رقم جيد.

ـ أهذا رأيك؟

ـ لم يُجبها الرجل لأنه كان ينظر إلى وجهها، وكان يفعل ذلك كأنه يبحث عن شيء ما.

ـ هل قلتَ إنه رقم جيد؟

ـ نظر الرجل إلى الورقة ـ نعم، لأن به رقم ٨ مكرر مرتين وموضوعان في وضع سيميتري، وأيضاً لأن حاصل جمع الأرقام متساوٍ.

ـ وما معنى هذا؟

ـ معناه أنه إذا فصلتِ بخطّ في وسط الأرقام فإن جمع الأرقام اليمنى يكون مساوياً لتلك اليسرى، وعادةً فإن هذا يعني حظّاً جيداً.

ـ وكيف تعرف سيادتك هذا؟

ـ إنها مهنتي.

ـ ابتسمت المرأة

ـ معك حق.

ووضعت النقود على الرف الخشبي.

قالت: سيادتك لست أعمى.

ـ عفواً؟

ـ سيادتك لست أعمى، أليس كذلك؟

ـ أخذ الرجل يضحك.

ـ لا، لست أعمى.

ـ شيء غريب...

ـ ولماذا يجب أن أكون أعمى؟

ـ لا أعلم، عادةً مَن يبيع أوراق اليانصيب يكون أعمى.

ـ حقاً؟!

ـ ربما ليس دائماً، ولكن غالباً... وأعتقد أن الناس يحبون ذلك.

ـ بمعنى؟

ـ لا أعلم، ربما يكون الأمر يتعلق بتلك المقولة المشهورة «إن الحظ أعمى».

قالت المرأة هذا ثم أخذت تضحك. كانت ضحكتها جميلة، ولا أثر فيها للتعب.

ـ عادةً ما يكونون مسنين جدّاً، وينظرون حولهم مثل تلك الطيور الاستوائية الموضوعة في واجهة محل الحيوانات.

قالت هذا بثقة كبيرة ثم أضافت: ولكنك مختلف.

قال الرجل إنه ليس أعمى ولكنه بالتأكيد مسن.

قالت له المرأة: وكم عمرك؟

قال الرجل: اثنان وسبعون عاماً. ثم أضاف: وهذا العمل يناسبني؛ فليست لديّ مشكلات، إنه عمل جيد.

قال هذا بصوت منخفض وبهدوء.

ابتسمت المرأة: بالتأكيد. لم أقصد هذا...

ـ إنه عمل يروقني.

ـ أنا متأكدة.

أخذت الورقة ووضعتها في حقيبة سوداء أنيقة، ثم استدارت ثانيةً إلى الوراء كأنها تتأكد من شيء ما، أو لترى إذا كان هناك أشخاص ينتظرون خلفها، وفي النهاية، وبدلاً من أن تحييه وتذهب قالت شيئاً:

ـ كنت أتساءل هل لدى سيادتك الرغبة في أن تأتي وتشرب معي كأساً؟

كان الرجل قد وضع لتوّه النقود في الدرج. مكث ويده لا تزال على وضعها قائلاً: أنا؟

ـ نعم.

ـ أنا... لا أستطيع.

أخذت المرأة تنظر إليه.

ـ يجب أن أستمر في عملي، لا أستطيع أن أذهب الآن، لا يوجد أحد بدلاً مني.. أنا لا..

ـ كأساً واحدة فقط.

ـ أنا آسف.. ولكنني بالفعل لا أستطيع.

أومأت المرأة بالإيجاب كأنها تفهم، ولكنها بعد ذلك انحنت قليلاً نحو الرجل وقالت: تعالَ معي.

قال الرجل مرة أخرى: اعذريني.

ولكنها كررت: تعالَ معي.

كان شيئاً غريباً. طوى الرجل الصحيفة، ونزل من فوق الكرسي الخشبي، خلع نظارته ووضعها في حافظتها الرمادية، ثم بدأ في إغلاق الكشك بعناية شديدة. كانت كل إيماءة منه تلحق بالأخرى ببطء وبهدوء كأنه في أمسية عادية، وكانت المرأة تقف، في سكون، تنتظر كأن الأمر لا يعنيها في شيء، ومن حين إلى آخر كان أحد المارة يستدير وينظر إليها؛ لأنها

كانت تبدو وحيدة، ولأنها كانت جميلة، لأنها لم تكن شابة، ولكنها كانت تبدو وحيدة.

أطفأ الرجل النور، أنزل المصراع الصغير وثبّته في الأرض بقفل حديدي. كان قد ارتدى معطفاً خفيفاً يتدلى قليلاً من كتفيه.

اقترب من المرأة: انتهيت.

ابتسمت المرأة: هل تعرف أين يمكننا الذهاب؟

ـ من هنا. هناك مقهى يمكننا أن نمكث فيه بهدوء.

دخلا إلى المكان، ووجدا مائدة صغيرة في أحد الأركان، جلس كلٌ منهما في مواجهة الآخر وطلبا كأسين من النبيذ، وسألت المرأة النادل إذا كانت لديه سجائر، وهكذا أخذا يدخنان. أخذا يتحدثان في أشياء مختلفة، وعن أولئك الذين يفوزون باليانصيب. قال الرجل إنهم عادةً لا ينجحون في إخفاء الأمر، والشيء الغريب أن أول شخص يذيعون له الخبر عادةً ما يكون طفلاً صغيراً. ربما كانت هناك حكمة ما من هذا كله، ولكنه لم ينجح قط في اكتشافها. قالت المرأة شيئاً ما عن القصص ذات الحكمة وتلك الخالية من المعاني.واستمرا في الحديث فترة، ثم قال لها إنه يعرف من تكون ولماذا أتت إلى هنا.

لم تقل المرأة شيئاً، وأخذت تترقب.

عندئذٍ استمر الرجل: منذ عدة أعوام رأيتِ ثلاثة رجال

يقتلون أباك بدم بارد، وأنا الوحيد من أولئك الثلاثة الذي لا يزال على قيد الحياة.

نظرت إليه المرأة باهتمام، ولكن لم يكن واضحاً فيمَ تفكر.

ـ لقد أتيتِ إلى هنا بحثاً عني.

كان يتكلم بهدوء. لم يكن عصبيّاً على الإطلاق.

ـ والآن قد عثرتِ عليَّ.

ثم مكث فترة في صمت؛ لأنه لم يكن لديه شيء آخر ليقوله، ولأنها لم تقل أي شيء.

ـ عندما كنتُ طفلة كان اسمي نينا، ولكن كل شيء انتهى في ذلك اليوم. لم يعد أحد بعدها يناديني بذلك الاسم.

ـ .....

ـ كان يعجبني: نينا.

ـ ......

ـ الآن لديّ عدة أسماء. الأمر مختلف.

ـ في البداية أتذكر شيئاً كالملجأ، لا أكثر، ثم جاء رجل يدعى ريكاردو أوريبى وأخذني معه، كان صيدليّاً في قرية صغيرة وسط الحقول، لم تكن لديه زوجة أو أقارب، لا أحد. قال للجميع إنني ابنته، كان قد وصل إلى هناك قبلها ببضعة أشهر فقط، فصدقه الناس.

في الصباح كان يجعلني أجلس في الجزء الخلفي من

الصيدلية، وبين زبون وآخر كان يعلّمني، لا أعرف لماذا، ولكن لم يكن يعجبه أن أذهب لأتجول وحدي، كان يقول لي: إن ما يجب أن تتعلميه يمكنك تعلّمه مني. كان عمري أحد عشر عاماً. وفي المساء كان يجلس على الأريكة ويجعلني أستلقي بجواره، كنت أضع رأسي في حضنه وأستمع إليه، كان يقص عليّ قصصاً غريبة عن الحرب، وكانت أصابعه تربت على شعري إلى الأمام وإلى الخلف ببطء. كنت أشعر بعضوه أسفل قماش سرواله. ثم كان يطبع على جبهتي قبلة ويتركني أذهب لأنام. كانت لديّ حجرة لي وحدى، وكنت أساعده في تنظيف الصيدلية والمنزل، كنت أغسل الملابس وأطهو. كان يبدو رجلاً طيباً، ولكنه كان يشعر دائماً بالخوف. لا أعرف لماذا..

...

وفي مساء ما انحنى عليّ وقبّلني في فمي، وأخذ يقبّلني هكذا، وبدأ أيضاً يضع يديه أسفل تنورتي وفي كل مكان. لم أفعل أي شيء، ثم فجأة ابتعد عني وأخذ يبكي ويطلب مني الصفح. بدأ فجأة كأنه مرعوب، لم أكن أفهم.

بعد ذلك ببضعة أيام قال إنه وجد لي خطيباً، شاباً من ريو جالفان، إحدى القرى القريبة، يعمل بنّاءً، وإنني سأتزوجه بمجرد أن أبلغ سن الزواج. ذهبت لأراه يوم الأحد التالي في الميدان، كان شاباً وسيماً، طويلاً ونحيفاً، نحيفاً جدّاً. كان

يتحرك ببطء، ربما كان مريضاً أو شيئاً من هذا القبيل. تبادلنا التحية، ثم عدت إلى المنزل.

...

إنها قصة مثل أية قصة أخرى. لماذا تريد أن تسمعها؟

فكر الرجل أنها كانت تتحدث بطريقة غريبة، كأنها تتحدث بطريقة لم يعتدها، أو كأن تلك لغة غريبة عنه. كان يبحث عن الكلمات متأملاً الفراغ.

ـ بعد ذلك ببضعة أشهر، في إحدى ليالي الشتاء، خرج أوريبي من المنزل ليذهب إلى الريفييرا، كانت حانة يلعبون فيها الورق وكان أوريبي يذهب إلى هناك دائماً الجمعة من كل أسبوع، دائماً يوم الجمعة، وفي تلك المرة لعب حتى وقت متأخر، ثم وجد نفسه وبين يديه مجموعة من الأوراق الرابحة وأمامه طبق مليء بنقود تفوق دخله السنوي. كان الأمر بينه هو والكونت تويلافيد فقط، أما الآخرين فكانوا قد توقفوا عن اللعب بعد أن خسروا بعض النقود، ولكن عناد الكونت زاد، وأخذ يزايد. كان أوريبي واثقاً من ورقه وأخذ يجاريه، ووصلا إلى الحد الذي فيه يفقد المقامرون شعورهم بالواقع، حتى إن الكونت قامر على مزرعته الواقعة في بيلسيتو، عندئذٍ توقف كل شيء في الحانة.

ـ هل تقامر؟

قال الرجل: لا.

ـ لا أعتقد إذاً أنه يمكنك أن تفهم.

ـ جربي.

ـ لن تفهم.

ـ لا أهمية لذلك.

ـ توقف كل شيء وساد صمت لن تفهمه.

وشرحت المرأة أن مزرعة بيلسيتو كانت أجمل مزرعة في المنطقة.

كان هناك صف من البرتقال يصعد حتى قمة الهضبة، وهناك، ومن المنزل يمكن رؤية المحيط.

ـ قال أوريبي إنه ليس لديه ما يقامر به يضاهي قيمة بيلسيتو، ووضع الأوراق على المائدة. عندئذٍ قال له الكونت إنه يمكنه أن يقامر بالصيدلية، ثم أخذ يضحك كالمجنون وأخذ بعض من الذين يقفون حوله يضحكون معه. كان أوريبي يبتسم، كان لا يزال يضع إحدى يديه على الورق، كأنه يصافحه. أصبح الكونت جاداً، وانحنى إلى الأمام فوق المائدة ونظر إلى أوريبي في عينيه وقال له:

ـ ولكن لديك طفلة جميلة.

لم يفهم أوريبي على الفور، وشعر بأعين الجميع تحدق إليه، ولم يقوِ على التفكير. بسّط له الكونت الوضع.

ـ سألعب معك على بيلسيتو مقابل طفلتك يا أوريبي. إنه عرض شريف.

ووضع على المائدة أوراقه الخمس مغطاة تماماً تحت أنف أوريبي.

نظر إليها أوريبي من دون أن يلمسها.

قال شيئاً بصوت منخفض، ولكن لم يعرف أحد ماذا قال.

ثم دفع بأوراقه نحو الكونت.

أخذني الكونت معه في تلك الليلة نفسها، وفعل شيئاً لم يتوقعه أحد، فلقد انتظر ستة عشر شهراً، وعندما أكملت عامي الرابع عشر تزوجني، وأنجبت له ثلاثة أبناء.

...

من الصعب جدّاً فهم الرجال، فلقد رآني الكونت قبل تلك الليلة فقط مرة واحدة، كان جالساً في المقهى، وكنت أنا أعبر الميدان وبمجرد أن رآني سأل أحدهم: مَن تلك الفتاة؟

وأجابوه.

كان الجو بالخارج يمطر من جديد، هكذا امتلأ المقهى بالمرتادين. كان لا بد من التحدث بصوت مرتفع ليتسنى لكلٍّ منهما سماع الآخر، أو أن يقرّبا أكثر. قال الرجل للمرأة إنها تحكي بطريقة عجيبة، كأنها تحكي قصة إنسانة أخرى.

ـ ما معنى هذا؟

ـ يبدو كأنه لا يهمكِ شيء مما تقولين.

قالت المرأة إن العكس هو الصحيح، وإنها تهتم بكل شيء أكثر من اللازم. قالت إنها تشعر بالحنين لكل شيء صغير حدث لها، ولكنها قالت ذلك بصوت قاسٍ من دون أي حزن. عندئذٍ التزم الرجل الصمت وأخذ ينظر إلى المحيطين به.

تذكر ساليناس، فلقد وجدوه في صباح أحد الأيام ميتاً في فراشه بعد عامين من قصة روكا.

قالوا إنه أصيب بشيء في قلبه، ثم انتشرت شائعة تقول إن طبيبه هو الذي سمَّمه، كان يضع له السم في جرعات يومية ببطء لعدة أشهر. عذاب بطيء، وبشع. حققوا في الأمر، ولكنهم لم يتوصلوا إلى شيء. كان الطبيب يدعى أستارتي، كان قد اغتنى قليلاً أثناء الحرب، وذلك بعد اختراعه لتركيبة تعالج الحمى والتلوث، كان قد اخترعها بمساعدة صيدلي، وكانت التركيبة تُدعى «بوتران»، والصيدلي يُدعى ريكاردو أوريبي، وكان في فترة الاختراع يعمل في العاصمة، وبمجرد انتهاء الحرب حدثت له بعض المشكلات مع الشرطة. في البداية وجدوا اسمه في قائمة الصيادلة الذين كانوا يوردون الأدوية إلى مستشفى روكا، ثم ظهر أحدهم وقال إنه رآه يعمل في مستشفى الضبع، ولكن قال كثيرون أيضاً إنه إنسان لا غبار عليه.

قدم نفسه للمحققين، وشرح لهم كل شيء، وعندما أطلقوا سراحه أخذ أشياءه وذهب إلى بلدة صغيرة في الريف في جنوب

البلدة. ابتاع صيدلية، وعاد مرة أخرى يمارس مهنته. كان يعيش وحده مع ابنة صغيرة اسمها دولشي، كان يقول إن أمها ماتت منذ أعوام، وكان الجميع يصدقونه، وهكذا كان يخفي نينا، ابنة مانويلي روكا التي نجت من الموت.

كان الرجل ينظر حوله من دون أن يرى أي شيء. كان غارقاً في أفكاره. كان يفكر في بشاعة الأطفال. لقد قلبنا الأرض بطريقة عنيفة جدّاً حتى أثمرت تلك البشاعة والوحشية لدى الأطفال. وعاد من جديد ليلتفت إلى المرأة، كانت هي أيضاً تنظر إليه.

وسمع صوتها يقول له: هل حقيقي أنهم كانوا ينادونك «تيتو»؟

أومأ الرجل برأسه بالإيجاب.

ـ هل عرفت أبي قبلها؟

ـ ...

ـ ...

ـ كنت أعرف من هو.

ـ هل حقيقي أنك كنت أول من أطلق عليه الرصاص؟

ـ هزّ الرجل رأسه: وما أهمية هذا...

ـ كان عمرك عشرين عاماً، كنت أصغرهم، كنت تحارب منذ عام فقط، كان إل جوري يعاملك كابن له.

ثم سألته المرأة إذا كان يتذكر كل هذا.

استمر هو في النظر إليها. وفقط في تلك اللحظة رأى أخيراً، في وجهها، وجه تلك الطفلة المستلقية هناك في أسفل بطريقة منظمة وغاية في الكمال. رأى تلك العينين، رآهما فيها مرة أخرى، ورأى تلك القوة المذهلة في هدوء هذا الجمال المنهك. التفتت الطفلة ونظرت إليه، كانت الطفلة الآن أمامه. كيف يمكن للزمن أن يكون دوّاراً إلى هذا الحد؟ أين أنا؟ تساءل الرجل، هل أنا هنا أم هناك؟ هل عشت لحظة مخالفة لتلك الماضية؟

قال الرجل إنه يتذكر، بل إنه لم يفعل شيئاً في حياته، لأعوام، سوى تذكر كل شيء.

ـ لأعوام طوال أخذت أتساءل ماذا كان عليّ أن أفعل، ولكن في الواقع لم أستطع قط أن أقول لأحد ما حدث. لم أقل لأحد قط إنكِ كنتِ هناك في الأسفل في تلك الليلة. يمكنك ألا تصدقيني ولكن هذا ما حدث. في البداية لم أتكلم بالطبع لأنني كنت خائفاً، ولكن بعد ذلك وبمرور الزمن أصبح الأمر مختلفاً، فلم يعد أحد يهتم بالحرب، وكان الناس يرغبون في التطلع إلى المستقبل ولم يعد أحد يهمه أي شيء مما حدث، وبدا كل شيء قد دُفن إلى الأبد، وبدأت أنا أفكر أنه ربما من الأفضل نسيان كل شيء وألا أبالي، ولكن في فترة ما ظهرت قصة ابنة روكا التي لا تزال على قيد الحياة، في مكان ما، والتي كانوا يخبئونها في إحدى القرى في جنوب البلدة. لم أعرف حينئذٍ

كيف أفكر. كان يبدو لي مستحيلاً أن تكون قد خرجت حية من ذلك الجحيم، ولكن مع الأطفال لا يمكن للمرء أن يتنبأ بأي شيء. في النهاية رآها أحدهم وأقسم أنها هي، هكذا أدركت أنني لن أتحرر أبداً من هذه القصة، لا أنا ولا الآخرون. وطبيعي بدأت أتساءل عما يمكن أن تكون قد رأته أو سمعته في تلك الليلة في المزرعة، وإذا كان لا يزال يمكنها تذكر وجهي. كان صعباً جدّاً إدراك ما يمكن أن يحدث في عقلية طفل أمام حدث مثل هذا، فالكبار لديهم ذاكرة ولديهم الشعور بالعدالة، وغالباً ما يشعرون بلذة الانتقام. ولكن ماذا عن طفلة؟ ولفترة أقنعت نفسي أنه لن يحدث أي شيء، ولكن بعد ذلك مات ساليناس بهذه الطريقة الغريبة.

كانت المرأة تستمع إليه بلا حركة.

سألها إذا كانت ترغب في أن يستمر.

قالت: استمر.

ـ واتضح أيضاً أن لأوريبي دخلاً في موته.

كانت المرأة تنظر إليه من دون أن يكون على وجهها أي تعبير، وشفتاها مطبقتان.

ـ كان يمكن أن يبدو الأمر محض مصادفة، ولكنه كان بالتأكيد أمراً غريباً، ورويداً رويداً بدأ الجميع يقتنعون أن تلك الطفلة تعرف شيئاً ما. من الصعب إدراك ذلك الآن، ولكن تلك الفترة كانت فترة عجيبة. كانت البلد تتقدم إلى الأمام، بعيداً عن

الحرب، بسرعة رهيبة متناسية خلفها كل شيء، ولكن كان هناك عالم بأسره لم يخرج قط من الحرب، ولم يستطع أن يجد لنفسه مكاناً في ذلك العالم السعيد. كنت أحد هؤلاء، بل نحن جميعاً. بالنسبة إلينا لم يكن هناك أي شيء قد انتهى، وكانت تلك الطفلة تُشكل خطراً، تحدثنا عن ذلك طويلاً، في الحقيقة لم يقتنع أي منا بطريقة موت ساليناس، وهكذا قررنا في النهاية أنه يجب القضاء على تلك الطفلة.

أعرف أن الأمر يبدو ضرباً من الجنون، ولكن في الواقع، كان كل شيء منطقياً، كان بشعاً لكن منطقياً. قرروا القضاء عليها وكلفوا كونت توريلافيد بأن يفعل ذلك.

توقف الرجل عن الكلام لبرهة، ونظر إلى يديه، بدا كأنه يعيد ترتيب ذكرياته.

ـ كان رجل يلعب دوراً مزدوجاً طوال فترة الحرب. كان يعمل لحسابهم، ولكنه كان واحداً منا. ذهب إلى أوريبي وسأله إذا كان يفضّل أن يقضي حياته كلها في السجن لقتل ساليناس أو أن يختفي إلى الأبد ويترك له الطفلة، وكان أوريبي شخصاً جباناً، كان عليه فقط أن يظل هادئاً ويلتزم الصمت ولن تستطيع أية محكمة الإيقاع به، ولكنه خاف وابتعد، ترك الطفلة للكونت وابتعد، ومات بعد ذلك بعدة أعوام في بلدة منعزلة خارج الحدود، وترك ورقة كتب فيها أنه لم يرتكب أي مكروه وأن الله سيطارد أعداءه حتى يلقي بهم في الجحيم.

التفتت المرأة لتنظر إلى طفلة تضحك بصوت عالٍ، مستندة إلى طاولة المقهى. ثم أخذت الوشاح الذي وضعته على مسند المقعد لتضعه على كتفيها.

ـ وقالت: أكمل.

أكمل الرجل:

ـ انتظر الجميع أن يجعلها الكونت تختفي، ولكنه لم يفعل ذلك، أخذها معه إلى منزله، أفهموه أنه عليه التخلص منها وقتْلها، ولكنه لم يفعل شيئاً واستمر في إخفائها في منزله. وفى النهاية قال: لا يجب عليكم أن تقلقوا بشأن الطفلة. وتزوجها. ولم يكفوا عن الحديث عن هذا الموضوع لشهور عدة في تلك الأنحاء، ولكن بعد ذلك توقف الجميع عن التفكير في هذا الموضوع، فقد كبرت الطفلة وأنجبت للكونت ثلاثة أبناء، ولم يكن أحد يراها قط في تلك الأنحاء، وأطلقوا عليها اسم «دونا سول»، الاسم الذي كان قد منحها إياه الكونت، وكانوا يقولون عنها شيئاً غريباً: إنها لم تكن تتحدث، لم تتحدث قط، وذلك منذ أن كانت لدى أوريبي، لم يسمعها أحد قط تتفوه بكلمة واحدة. ربما كان مرضاً ما، وربما كان الأمر ببساطة لأنها هكذا، ولكن دون معرفة السبب كان الناس دائماً يخافونها.

ابتسمت المرأة، ودفعت بشعرها إلى الوراء في حركة صبية.

نظراً إلى أن الوقت قد تأخر، سألهما النادل إذا كانا يرغبان في تناول الطعام، وفي إحدى الزوايا في المقهى كان قد وصل

ثلاثة أشخاص بدؤوا في العزف، كانوا يعزفون ألحاناً يمكن الرقص على إيقاعها. قال الرجل إنه لا يشعر بالجوع.

قالت له المرأة مبتسمة: سأدعوك أنا.

كان يبدو كل شيء بالنسبة إلى الرجل عبثيّاً، ولكنّ المرأة أصرت.

قالت إنه يمكنهما تناول بعض الحلوى.

ـ هل ترغب في تناول الحلوى؟

أومأ الرجل بالإيجاب.

ـ حسناً، إذن سنتناول الحلوى.

قال النادل إن تلك فكرة جيدة، ثم أضاف أنهما يمكنهما المكوث كما يرغبان، لن تكون هناك مشكلات. كان شاباً، يتحدث بلكنة غريبة، رأياه يعود إلى الطاولة وهو يصرخ بالطلب على شخص غير مرئي.

ـ سألته المرأة: هل تأتي كثيراً إلى هنا؟

ـ لا.

ـ مكان جميل.

نظر الرجل حوله، وقال إنه بالفعل كذلك.

ـ هل حكى لك أصدقاؤك كل هذه القصص؟

ـ نعم.

ـ وهل تصدقهم؟

ـ نعم.

قالت المرأة شيئاً وهي تهمس، ثم طلبت من الرجل أن يحكي لها بقية ما يعرفه.

ـ وما الفائدة؟

ـ احكِه أرجوك.

ـ إنها ليست قصتي، بل قصتكِ أنتِ، وأنتِ تعرفينها خيراً مني.

ـ ليس بالضرورة.

هزّ الرجل رأسه.

وعاد لينظر إلى يديه.

ـ في أحد الأيام ركبت القطار وذهبت إلى بيلسيتو، كانت قد مرت أعوام طويلة. كنت أستطيع النوم ليلاً، وكان حولي أشخاص لا يطلقون عليّ اسم تيتو، اعتقدت أنني نجحت بالفعل، وأن الحرب قد انتهت حقاً، وأنه لم يعد هناك سوى شيء واحد يجب عمله. ذهبت إلى الكونت لأقول له تلك القصة عن المخزن الصغير، وعن الطفلة، وعن كل شيء. كان هو يعرف من أكون، كان مهذباً جدّاً، أخذني إلى مكتبته وقدم لي شراباً، وسألني عما أريده فقلت له: هل تتذكر تلك الليلة، في مزرعة ماتو رويو؟

فقال هو: لا.

ـ ليلة مانويلي روكا.

ـ لا أعرف عن أي شيء تتحدث.

قال هذا بهدوء شديد، بل بعذوبة. كان واثقاً بنفسه، ولم يكن لديه أدنى شك.

فهمت المقصود. تحدثنا قليلاً عن العمل، تحدثنا حتى عن السياسة، ثم نهضت أنا وانصرفت ثم جعل صبياً يصحبني إلى محطة القطار، أتذكر ذلك لأن عمره كان نحو أربعة عشر عاماً، ولكنه كان يقود السيارة وكان هو يسمح له بذلك.

قالت المرأة: كارلوس.

ـ لا أتذكر ماذا كان اسمه.

ـ إنه ابني الكبير كارلوس.

كان الرجل على وشك أن يقول شيئاً، ولكن النادل وصل ومعه الحلوى، وكان قد أحضر أيضاً زجاجة أخرى من النبيذ، سألهما إذا كانا يرغبان في تذوقه، فإنه نوع جيد من النبيذ يمكن تناوله مع الحلوى، ثم قال شيئاً مرحاً عمّن رئيسته في العمل. ضحكت المرأة، وفعلت ذلك وهي تحرك رأسها، ذلك الرأس الذي، منذ عدة سنوات، لم يكن في استطاعة أحد هزيمته، ولكن الرجل لم يرها؛ لأنه كان يتتبع خيط ذكرياته، وعندما انصرف النادل عاد يتحدث من جديد.

ـ وقبل أن أخرج من بيلسيتو في ذلك اليوم، وبينما كنت أسير في الممر الطويل، وأمام كل تلك الأبواب المغلقة، فكرت

أنها بالتأكيد موجودة في مكان ما في ذلك المنزل. كنت سأسعد برؤيتها. لم يكن لديّ شيء لأقوله لها، ولكنني كنت سأشعر بالسعادة لرؤية وجهها مرة أخرى بعد كل تلك الأعوام وللمرة الأخيرة. فكرت في هذا وأنا أمشي هناك في ذلك الممر، وحدث شيء غريب، ففي لحظة ما فُتح أحد تلك الأبواب. انتابني شعور مؤكد لثانية بأنها ستخرج من هناك، وأنها ستمر بجواري من دون أن تنطق بكلمة واحدة.

هز الرجل رأسه ببطء: ولكن لم يحدث أي شيء؛ لأنه عادةً ما ينقص الحياة شيء ما يمنعها من أن تصبح مثالية.

كانت المرأة تنظر إلى الحلوى الموضوعة في الطبق وهي ممسكة بالملعقة في يدها كأنها تبحث عن المكان الذي تضع فيه الملعقة.

من حين إلى آخر كان أحدهم يمر أمام المائدة ملقياً نظرة على هذين الشخصين. كانا زوجاً عجيباً، لم تكن تصدر عنهما إيماءات شخصين يعرف كل منهما الآخر، ولكنهما كانا يتحدثان مقتربين أحدهما من الآخر، وكانت هي تبدو وقد ارتدت تلك الملابس لتثير إعجابه، ولم يكن أحد منهما يرتدى أية خواتم في أصابعه. ربما كنت ستقول عنهما إنهما حبيبان، ولكن ربما كان ذلك في الماضي، منذ عدة أعوام، أو ربما كانا أخاً وأخته.. من يدري؟

سألته المرأة: وما الذي تعرفه عني أيضاً؟

خطر في ذهن الرجل أن يسألها السؤال نفسه، ولكنه كان قد بدأ في الحكي، وأدرك أنه يستمتع بذلك، ربما يكون قد انتظر اللحظة التي سيفعل فيها ذلك منذ أعوام، أن يحكي كل شيء، في إحدى الزوايا، وهو منفصل عن المقطوعات الموسيقية الراقصة التي يعرفها عن ظهر قلب.

ـ بعد ذلك بعشرة أعوام مات الكونت في حادث سيارة، ومكثت هي مع أبنائها الثلاثة وبيلسيتو وبقية الممتلكات، ولكن هذا لم يعجب أفراد عائلته. قالوا إنها مجنونة، وإنه لا يجب أن تبقى وحدها مع الأبناء الثلاثة، وفي النهاية تقدموا بالأمر إلى المحكمة، وحكم القاضي لهم، وهكذا أبعدوها عن بيلسيتو وعهدوا بها إلى الأطباء في أحد منازل العلاج في سانتاندر. أليس كذلك؟

ـ استمر.

ـ يبدو أن أبناءها شهدوا ضدها.

كانت المرأة تلعب بالملعقة، كانت تدق بها على حافة الطبق، واستأنف الرجل.

ـ بعد ذلك بعامين هربت واختفت. قال بعضهم إن أصدقاءها ساعدوها على الهروب، وإنهم يخفونها في مكان ما، ولكن مَن عرفها قال إنها، وبكل بساطة، لم يكن لديها أي أصدقاء. بحثوا عنها لفترة، ثم يئسوا، ولم يعد أحد يتحدث عن هذا

الموضوع، واقتنع كثيرون أنها قد ماتت، فكثير من المجانين يختفون ولا أحد يعرف عنهم شيئاً.

رفعت المرأة رأسها وسألته: هل لديك أولاد؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

أجاب الرجل: لا بد أن تكون لدى المرء ثقة بالعالم حتى يُقدم على إنجاب الأبناء.

ـ كنت في تلك الأعوام أعمل في مصنع، هناك في الشمال، وحكوا لي تلك القصة عنها، عن العيادة وعن هروبها. قالوا لي أكثر الاحتمالات أن الأمر انتهى بها في قاع أحد الأنهار، أو في أحد المخابئ، وإن آجلاً أو عاجلاً سيعثر عليها أحد المشردين. قالوا لي إن كل شيء قد انتهى. لم أكن أفكر في شيء. صدمني ما قالوه عن جنونها، وأتذكر أنني تساءلت عن أي نوع من الجنون يمكن أن يكون قد أصابها؟ هل كانت تدور في المنزل وهي تصرخ، أو كانت ببساطة تجلس صامتة في إحدى الزوايا تحصي ألواح الأرضية وهي ممسكة في يديها بحبل مجدول أو برأس طائر صغير؟ غريبة تلك الصورة التي نصنعها عن المجانين، ما دمنا لم نعرفهم بأنفسنا.

ثم توقف فترة طويلة وفي النهاية قال:

ـ بعد ذلك بأربعة أعوام مات إل جوري.

صمت لفترة أخرى. كان يبدو فجأة أن القصّ قد أصبح صعباً إلى أبعد الحدود.

ـ وجدوه وقد أصيب برصاصة في ظهره ساقطاً على وجهه في الوحل أمام إسطبله.

رفع وجهه تجاه المرأة:

ـ وجدوا في جيبه ورقة مكتوباً فيها اسم امرأة. اسمك.

وخطط بيده في الهواء ـ دونا سول.

وترك يده لتسقط على المائدة.

ـ وكان ذلك خطه، كان قد كتب هذا الاسم، دونا سول.

وفي الخلف بدأ العازفون الثلاثة مقطوعة فالس، وأخذوا يعزفونها بسرعة وبصوت منخفض.

ـ منذ ذلك اليوم أخذت أنتظرك.

كانت المرأة قد رفعت رأسها وأخذت تحدق إلى وجهه.

ـ كنت قد أدركت أنه لن يوقفكِ شيء، وأنكِ ستصلين إليّ في أحد الأيام.

لم أتخيل قط أنكِ ستقتلينني من ظهري، أو سترسلين إليّ شخصاً لا يعرفني ليفعل ذلك .كنت أعرف أنكِ ستأتين بنفسكِ، وأنكِ ستنظرين إلى وجهي وأنكِ ستتحدثين معي أولاً؛ لأنني كنت من فتح باب المخزن الصغير في تلك الليلة، ثم عاد فأغلقه، وأنكِ لن تنسي ذلك أبداً.

تمهل الرجل للحظة، ثم قال الشيء الوحيد الذي كان يريد قوله:

ـ لقد احتفظت بهذا السر بداخلي طوال حياتي كأنه مرض ما، ولذلك كنت *أ*ستحق أن أجلس هنا معك.

ثم صمت الرجل. كان يُسمع صوت قلبه يخفق بعنف في كل أنحاء جسمه، من أطراف أصابعه حتى صدغيه. فكّر في أنه جالس في مقهى أمام سيدة عجوز مجنونة يمكنها بين لحظة وأخرى أن تنهض من مقعدها وتقتله، وكان يعرف أنه لن يفعل أي شيء ليمنعها، وفكّر، لقد انتهت الحرب.

أخذت المرأة تنظر حولها، ومن حين إلى آخر كانت تلقي نظرة على الطبق الفارغ. لم تكن تتحدث، ومنذ أن توقف الرجل عن الحكي، توقفت هي أيضاً عن النظر إليه. كان يمكن إذا نظر إليها شخص أن يعتقد أنها جالسة وحدها في انتظار شخص ما.

عاد الرجل إلى الوراء وأسند ظهره إلى المقعد. الآن يبدو صغير الحجم ومتعباً. كان يراقب، كأنه يقف بعيداً، عينَي المرأة وهما تتجولان في المقهى وعلى المائدة، كانت عيناها تقعان على كل شيء إلا عليه. أدرك أنه لا يزال يرتدي سترته، عندئذٍ أدخل يديه في جيبيه، وشعر بياقته تشتد عند رقبته كأنه وضع حجرين في سترته. فكر في رواد المقهى حوله، ووجد أنه من الغباء ألا يدرك أحد، في تلك اللحظة، حقيقة ما يحدث. من الصعب رؤية عجوزَين جالسَين على مائدة وتخمين أنهما قادران

على فعل كل شيء. إلا أن الأمر كان كذلك بالفعل، لأنها كانت شبحاً، أما هو فقد كان رجلاً انتهت حياته منذ فترة طويلة... وفكر، إذا عرف هؤلاء الحقيقة... وعندئذٍ بدأ يشعر بالخوف.

ثم رأى عينَي المرأة وقد بدأتا تومضان وأخذ يتساءل: من يدري إلى أين قادتها أفكارها الآن.

كان وجهها ثابتاً بلا حراك، وبلا أي تعبير، كانت عيناها تنظران في ذلك الاتجاه.

هل كان ذلك بكاءً؟

وفكر أيضاً أنه لن يعجبه أن يموت هنا بالداخل في وجود كل أولئك ينظرون إليه.

ثم أخذت المرأة تتحدث، وكان هذا ما قالته.

ـ رفع أوريبي أوراق الكونت وفردها ببطء بين أصابعه كاشفاً إياها واحدة تلو الأخرى. لا أعتقد أنه فكر في تلك اللحظة فيما سيفقده، بالتأكيد فكر فيما لم يستطع الفوز به. لم أكن أعني له كثيراً. نهض وصافح من كانوا معه بأدب. لم يضحك أحد، بل لم يجرؤ أحد أن يقول شيئاً، ولم يرَ أحد بعد ذلك، في هذا المكان، يداً تلعب البوكر مثل يده. والآن سيادتك قل لي: لماذا يجب أن تكون تلك القصة هي القصة المزيفة وليست قصتك؟

- ...

- ...

- ...

- كان أبي رجلاً رائعاً. ألا تصدقني؟ لماذا؟ لأن القصة التي تعرفها يجب أن تكون هي الحقيقة؟

- ...

- مع كل اجتهاد المرء ليعيش حياة واحدة، يجد فيها الآخرون آلاف من الحيوات الأخرى، ولهذا لا ينجح أحد في تجنب الأذى.

- ...

- هل تعلم أنني أعرف كل شيء عن تلك الليلة، إلا أنني لا أكاد أتذكر شيئاً؟ كنت هناك في الأسفل، كنت لا أرى ولكنني كنت أسمع شيئاً ما، وكان ما أسمعه غريباً جدّاً، كان يبدو لي كل شيء كالحلم، واختفى كل شيء في ذلك الحريق، فالأطفال لديهم موهبة خاصة في النسيان، ولكنهم بعد ذلك حكوا لي كل شيء، ولذلك فإنني أعرف كل شيء. هل كذبوا عليّ؟ لا أعرف. لم تكن لديّ قط القدرة لأطرح على نفسي هذا السؤال. دخلتم المنزل، أطلقت أنت عليه الرصاص أولاً، ثم أطلق عليه ساليناس رصاصة، وفي النهاية وضع إل جوري فوهة المدفع الرشاش في حنجرته وفجّر له رأسه بطلقات بسيطة من الرشاش. كيف عرفت ذلك؟ حكى لي هو كل شيء. كان يحب أن يحكيه لي. كان حيواناً، بل كنتم جميعاً حيوانات. إنكم دائماً

هكذا أيها الرجال، دائماً هكذا في الحرب، كيف سيغفر لكم الله ما ارتكبتموه؟

ـ توقفي من فضلك.

ـ إذا نظرت إليك تبدو رجلاً طبيعياً، ترتدى سترة بالية، وعندما تخلع نظارتك تضعها بنظام في حافظتها الرمادية. تنظف فمك قبل أن تشرب، وزجاج الكشك الذي تعمل بداخله يلمع من النظافة، وعندما تعبر الطريق تنظر عن يمينك ثم عن يسارك، فأنت رجل عادي، إلا أنك رأيت أخي يُقتل دون أي سبب، مجرد طفل ممسك ببندقية في يده، خزانة ملأى بالرصاص، وانتهى كل شيء، وكنت هناك، ولم تفعل شيئاً، كان عمرك عشرين عاماً، لم تكن عجوزاً محطماً، بل كنت شاباً عمره عشرون عاماً، ولم تفعل شيئاً، هل تصنع بي معروفاً؟ هل تفسر لي كيف يمكن حدوث هذا؟ هل لديك طريقة تفسر بها لي كيف يمكن فعلياً لشيء مثل هذا أن يحدث؟ إن ما حدث ليس مجرد كابوس شخص مريض، بل إنه شيء قد حدث بالفعل، هل يمكن أن تقول لي كيف يمكن هذا؟

ـ كنا جنوداً.

ـ ما معنى هذا؟

ـ كنا نحارب.

ـ أي حرب؟ كانت الحرب قد انتهت.

ـ ليس بالنسبة إلينا.

ـ ليس بالنسبة إليكم؟

ـ إنكِ لا تعرفين شيئاً.

ـ إذن، أخبرني أنت ما لا أعرفه.

ـ كنا نؤمن بعالم أفضل.

ـ ما معنى هذا؟

ـ ...

ـ ما معنى هذا؟

ـ لم يكن في الإمكان التراجع. عندما يبدأ الناس في التقاتل، لا يتراجعون أبداً إلى الوراء. لم نكن نرغب في الوصول إلى هذا الحد، لكن بدأ بذلك الآخرون، ثم لم يعد هناك شيء آخر يمكننا أن نفعله.

ـ ما معنى عالم أفضل؟

ـ عالم عادل، حيث لا يعاني الضعفاء شر الآخرين، عالم يكون فيه للجميع الحق في الحياة السعيدة.

ـ وهل كنت تؤمن بهذا؟

ـ بالتأكيد كنت أومن بهذا، كنا جميعاً نؤمن بهذا، كان يمكن تحقيق ذلك، وكنا نعرف كيف.

ـ هل كنتم تعرفون؟

ـ هل يبدو هذا لكِ غريباً؟

ـ أجل.

ـ إلا أننا كنا نعرف هذا، وكنا نصارع لأجل هذا، لنفعل ما هو صواب.

ـ بأن تطلقوا النيران على الأطفال؟

ـ نعم، إذا كان هذا ضرورياً.

ـ ما هذا الذي تقوله؟

ـ لن يمكنكِ أن تفهمي.

ـ يمكنني أن أفهم، اشرح لي وأنا سافهم.

ـ مثل الأرض.

ـ ...

ـ ...

ـ ...

ـ لا يمكنكِ البذر دون حرث، قبل البذر يجب عزق الأرض.

ـ ...

ـ لا بد من المرور عبر الآلام، هل تفهمين؟

ـ لا.

ـ كان هناك كثير من الأشياء التي يجب تحطيمها لنتمكن من بناء ما نريده، ولم تكن هناك طريقة أخرى، كان علينا أن نكون قادرين على التألم وتحمل الألم، من استطاع تحمل آلام أكثر انتصر، لا يمكن أن نحلم بعالم أفضل، ونعتقد أنهم سيسلمونه

لنا فقط لأننا طلبناه. لم يكن لهؤلاء الرغبة في التنازل قط، كان يجب أن نناضل وبمجرد أن يفهم المرء ذلك لم يكن هناك فارق بين عجوز وطفل، بين أصدقائك وأعدائك، كأنكِ تعزقين الأرض، لم يكن هناك ما يمكن عمله، لم تكن هناك طريقة لتحقيق ذلك لا تجلب الألم. وعندما كان يبدو كل شيء مرعباً جدّاً، كان لدينا حلمنا يحمينا، كنا نعلم أنه على قدر الثمن المدفوع ستصبح المكافأة وسيصبح المقابل أيضاً كبيراً؛ لأننا لا نحارب فقط من أجل حفنة من النقود، أو لنحصل على حقل نعمل به، أو لمجرد علم، ولكننا كنا نفعل ذلك بهدف الحصول على عالم أفضل، هل تفهمين ما معنى ذلك؟ كنا نحاول أن نعيد إلى ملايين من الناس حياة كريمة، وإمكانية أن يصبحوا سعداء، وأن يعيشوا ويموتوا في كرامة دون أن تطأهم الأقدام أو أن يُهانوا. كنا لا شيء، كنا نفعل كل شيء لأجلهم، ملايين من الناس كنا هناك لأجلهم هم، ما أهمية طفل يموت ملتصقاً بحائط أو حتى عشرة أو مائة آخرين، كان لا بد من عزق الأرض وفعلنا ذلك، لأن ملايين آخرين من الأطفال كانوا ينتظرون منا أن نفعل ذلك، وفعلناه، ربما كان عليكِ...

ـ هل تصدق ما تقوله حقاً؟

ـ بالتأكيد أصدقه.

ـ بعد مرور كل هذه السنوات ما زلت تصدقه؟

ـ لماذا لا؟

ـ لقد انتصرتم في الحرب. هل يبدو لك ما نعيش فيه الآن عالماً أفضل؟

ـ لم أطرح هذا السؤال على نفسي قط.

ـ ليس حقيقياً، بل طرحته على نفسك آلاف المرات، ولكنك تخشى الإجابة عنه، تماماً كما سألت نفسك آلاف المرات ماذا كنت تفعل تلك الليلة في ماتو ريو، لتحارب بعد أن انتهت الحرب، وتقتل بدم بارد رجلاً لم تره من قبل، من دون أن تمنح له الحق ليحصل على محاكمة عادلة، أن تقتله بكل بساطة لسبب واحد، هو أنك قد بدأت بالفعل في القتل ولم تعد قادراً على التوقف. وفي كل هذه السنوات سألت نفسك آلاف المرات لماذا دخلت هذه الحرب، وطوال الوقت كنت تستعيد عالمك الأفضل لكي لا تفكر في اليوم الذي أحضروا لك فيه عيني أبيك، ولكي لا ترى كل من ذُبحوا، والذين منذ ذلك الحين وحتى الآن يملؤون ذاكرتك كأنها ذكرى تطاردك، بل كأنها الذكرى الوحيدة، فالسبب الحقيقي الذي حاربت لأجله، والذي لأجله لم تفكر في شيء آخر هو الانتقام. والآن لا بد وأن تكون قادراً على النطق بهذه الكلمة، الانتقام، فلقد كنت تقتل بهدف الانتقام، كان الجميع يقتلون بغرض الانتقام، لا يوجد ما يجب أن تخجل منه، إن الانتقام هو العلاج الوحيد ضد الألم، كل ما يمكن أن يفعله المرء حتى لا يفقد عقله، إنه المخدر الذي عندما يتناوله المرء يصبح قادراً على القتال،

ولكنكم لم تتحرروا، لقد دمر حياتكم بأسرها، ملأها بالأشباح، لكي تنجوا بعد أربعة أعوام من الحروب، حرقتم حياتكم بأسرها، والآن لم تعودوا حتى تعرفون...

- ليس حقيقياً.

- لم تعودوا تتذكرون حتى *ما* معنى الحياة.

- وماذا تعرفين عنها أنتِ؟

- فعلاً، ماذا يمكن لي أن أعرف؟ فأنا لست سوى امرأة عجوز مجنونة، أليس كذلك؟ أنا لا يمكنني أن أفهم، ففي تلك الفترة لم أكن سوى طفلة، كيف لي أن أفهم؟ سأخبرك بما أعرفه، لقد كنت مستلقية في مخبأ صغير تحت الأرض، وصل ثلاثة رجال، أمسكوا بأبي، ثم...

- توقفي من فضلك.

- ألا تعجبك هذه القصة؟

- أنا لم أندم على شيء، كان لا بد من القتال، وفعلنا ذلك، لم نمكث في منازلنا ونغلق أبوابنا على أنفسنا في انتظار أن تنتهي الحرب، لقد خرجنا من مخابئنا من تحت الأرض، وفعلنا ما كان علينا أن نفعله، هذه هي الحقيقة، يمكنكِ أن تقولي كل شيء الآن، يمكنكِ أن تفسري الأمر كما ترغبين، لأن الوضع الآن مختلف، كان يجب أن تكوني هناك لتفهمي، ولكنكِ لم تكوني هناك، كنتِ طفلة، لم يكن هذا خطأكِ، ولكن لا يمكنكِ أن تفهمي.

ـ اشرح لي أنت وسأفهم.

ـ إنني متعب الآن.

ـ لدينا كل الوقت، اشرح لي وأنا سأستمع إليك.

ـ أرجوكِ، اتركيني في سلام.

ـ لماذا؟

ـ افعلي ما يجب عليكِ عمله ثم اتركيني في سلام.

ـ لماذا تشعر بالخوف؟

ـ لست خائفاً.

ـ إذاً ماذا بك؟

ـ أشعر بالتعب.

ـ لماذا؟

ـ ...

ـ ...

ـ أرجوكِ.

ـ ...

ـ ...

ـ ...

ـ أرجوكِ.

عندئذٍ خفضت المرأة نظرتها، ثم رجعت إلى الوراء،

وابتعدت عن المائدة، مستندة على ظهر المقعد. نظرت حولها، كأنها تكتشف فجأة في تلك اللحظة أين هي. كان الرجل جالساً، كان يضغط على أصابعه بإحدى يديه على الأخرى، ولكنه كان الشيء الوحيد الذي يتحرك بداخله.

وفي الجزء الداخلي من المقهى، كان العازفون الثلاثة يعزفون نغمات مختلفة، وكان أحدهم يرقص.

ولفترة مكثا هكذا، في صمت.

ثم قالت المرأة شيئاً عن حفل حضرته منذ أعوام حضره مطرب مشهور، دعاها إلى الرقص، وبصوت منخفض قالت إنه كان مسنّاً ولكنه كان يتحرك بخفة كبيرة، وقبل أن تنتهي الموسيقى شرح لها كيف أن قَدَر امرأة ما عادةً ما يكون مكتوباً في الطريقة التي ترقص بها، ثم قال لها إنها ترقص كما لو كانت ترتكب معصية ما.

ضحكت المرأة ونظرت حولها.

ثم حكت شيئاً آخر. كان ذلك عن تلك الليلة في ماتو ريو، قالت إنها عندما رأته يرفع غطاء المخزن لم تشعر بالخوف، بل التفتت لتنظر إلى وجه ذلك الصبي، وبدا لها كل شيء طبيعيّاً جدّاً، بل واضحاً، وقالت إنه ـ بطريقةٍ ما ـ *أعجبها* ما كان يحدث، ثم أنزل هو الغطاء، عندئذٍ فقط أصابها الخوف، وكانت أكثر لحظات الفزع في حياتها، فلقد عاد الظلام مرة أخرى، وصوت السلال وهي تُجذَب مرة أخرى لتوضع فوق

رأسها، ثم خطوات ذلك الصبي وهو يبتعد، ولم يتركها ذلك الخوف بعد ذلك قط. التزمت الصمت لبرهة ثم أضافت: إن ذاكرة الأطفال غريبة جدّاً. وأضافت: أعتقد أنني في تلك اللحظة كنت أتمنى شيئاً واحداً فقط، أن يأخذني ذلك الصبي معه.

ثم استمرت وقالت أشياء أخرى عن الأطفال والخوف، ولكن الرجل لم يكن يستمع؛ لأنه كان يحاول أن يرتب الكلمات ليقول شيئاً يرغب في أن تعرفه المرأة، كان يريد أن يقول لها إنه بينما كان ينظر إليها، في تلك الليلة، منكمشة على نفسها هناك في تلك الحفرة، منظمة ونظيفة كما كانت ـ *نظيفة* ـ شعر بنوع من السكينة ينتابه، نوع من السلام لم يعثر عليه بعد ذلك قط، أو ربما عثر عليه مرات قليلة أمام منظر طبيعي جميل، أو عندما كان يشاهد حيواناً ما. كان يرغب في أن يشرح لها تماماً ذلك الشعور، ولكنه عرف أن كلمة «سلام» لا يمكن أن تكفي لتصف ما شعر به لحظتها، وفي الوقت نفسه لم تخطر على باله كلمة بديلة، ربما فقط الفكرة بأنه كان يقف أمام شيء «*مكتمل*» إلى ما لا نهاية، كما كان يحدث له أحياناً في الماضي عندما كان يشعر بصعوبة إضفاء صفة معينة أو اسم ما على كل ما حدث له في أثناء الحرب، كأنه كانت هناك لعنة ما بسببها لا يستطيع مَن كُتبت لهم النجاة سرد ما حدث لهم، ومَن كان يستطيع ذلك لم تكن تُكتَب له النجاة. رفع عينيه نحو المرأة ورآها تتكلم، لكنه لم يستطع سماعها؛ لأن أفكاره كانت تجذبه من جديد إلى بعيد، وكان هو متعباً جدّاً فلم يتمكن من مقاومة تلك الأفكار.

وهكذا مكث هناك، مستنداً إلى ظهر المقعد، ولم يفعل شيئاً سوى أنه في لحظة ما بدأ في البكاء، من دون أن يشعر بالخجل، من دون حتى أن يخفي وجهه بيديه، ولا أن يحاول السيطرة على وجهه الذي كان يتقلص في تعبيرات تثير الشفقة، وأخذت دموعه تتساقط حتى ياقة قميصه، تتساقط حتى رقبته البيضاء، المحلوقة بلا عناية مثل حال كل المسنين في العالم.

توقفت المرأة. لم تكن قد أدركت على الفور أنه بدأ في البكاء، والآن لم تعد تعرف جيداً ماذا يجب عليها أن تفعل. اقتربت قليلاً من المائدة وهمست بشيء ما، بصوت منخفض، ثم التفتت بعفوية تجاه الموائد الأخرى، وهكذا رأت أن اثنين من الشباب يجلسان بالقرب منهما كانا ينظران إلى الرجل، وكان أحدهما يضحك، عندئذٍ صرخت قائلةً شيئاً ما، وعندما التفت الشاب إليها، نظرت إليه في عينيه وقالت له بقوة:

ـ اذهب إلى الجحيم.

ثم ملأت كأس الرجل بالنبيذ وقربته منه، لم تقل أي شيء، وعادت تستند إلى ظهر الكرسي مرة أخرى. واستمر الرجل في البكاء، وكانت هي من حين إلى آخر تنظر شزراً حولها، كأنها أنثى حيوان واقفة أمام الجحر الذي وضعت فيه صغارها.

سألت المرأة الواقفة خلف منضدة البار: من يكون هذان الشخصان؟

أدرك النادل أنها تتحدث عن العجوزين الجالسين هناك على المائدة.

فقال: كل شيء على ما يرام.

ـ هل تعرفهما؟

ـ لا.

ـ كان الرجل يبكي منذ قليل.

ـ أعرف.

ـ ربما يكونان قد ثملا..

ـ لا، كل شيء على ما يرام.

ـ ولكن قل لي، هل يجب أن يأتي الناس إلى هنا ثم..

بالنسبة إلى النادل لم يكن هناك ما يسيء إذا بكى أحدهم في مقهى، ولكنه لم يقل شيئاً. كان النادل هو ذلك الشاب ذو اللهجة الغريبة. وضع فوق المنضدة ثلاثة أكواب فارغة وعاد وسط الموائد.

التفتت المرأة نحو المسنين وأخذت تنظر إليهما بعض الوقت.

ـ لا بد وأنها كانت امرأة جميلة جدّاً..

قالت هذا بصوت مرتفع، حتى إن لم يكن بجوارها أحد ليسمع ما تقول. عندما كانت شابة كانت تحلم بأن تصبح ممثلة في السينما، كان الجميع يقولون إنها صبية منطلقة وموهوبة،

وكانت هي تحب الرقص والغناء، كان صوتها جميلاً، من النوع العادي، ولكنه جميل، ثم قابلت ممثل شركة منتجات تجميل أخذها إلى العاصمة ليلتقط لها صوراً لدعاية عن كريم ليلي. أرسلت الصور إلى المنزل في ظرف ومعها بعض النقود، وحاولت الغناء بضعة أشهر، ولكن لم يثمر عن شيء. كانت أفضل حالاً مع الصور. أحمر خدود، وأحمر شفاه، ومرة نوع من السوائل ضد احمرار الوجه. تخلت أيضاً عن حلم السينما، قالوا لها إنها يجب أن تنام مع الجميع لتصل إلى ما تريد، ولكنها رفضت ذلك.

وفي أحد الأيام عرفت أنهم يبحثون عن مذيعات في التليفزيون، فذهبت لإجراء الاختبار، ونظراً إلى أنها كانت موهوبة وصوتها جميل، اجتازت الاختبارات الثلاثة الأولى وفي النهاية كانت الثانية ضمن المستبعدين، قالوا لها إنه يمكنها الانتظار قليلاً ربما حصلت على مكان، انتظرت، وبعد شهرين وجدت مكاناً في الإذاعة، على القناة الأهلية الأولى.

وفي أحد الأيام عادت إلى بلدها، وتزوجت، والآن تمتلك هذا المقهى في وسط البلد.

أما المرأة الجالسة هناك على المائدة مع الرجل فقد تقدمت إلى الأمام، كان الرجل قد توقف منذ برهة عن البكاء، كان قد أخرج منديلاً كبيراً من جيبه وبدأ يكفكف دموعه وقال: أرجو المعذرة.

ثم توقفا عن الحديث.

كان يبدو بالفعل أنه لم يكن هناك شيء يمكنهما فهمه، هما الاثنان.

ولكن المرأة تقدمت قليلاً نحو الرجل وقالت له: أريد أن أطلب منك شيئاً غبيّاً.

رفع الرجل عينيه نحوها.

كانت المرأة تبدو جادة جدّاً

ـ هل توافق على مطارحتي الغرام؟

أخذ الرجل ينظر إليها في سكون وصمت.

هكذا انتاب المرأة الشعور بالخوف للحظة من أن تكون فكرت فقط في تلك العبارة دون أن تنجح في أن تنطق بها، فكررتها مرة أخرى ببطء، فابتسم الرجل وقال: إنني رجل مسن.

ـ وأنا أيضاً.

ـ ...

ـ ...

قال الرجل مرة أخرى: آسف ولكننا مسنان.

أدركت المرأة أنها لم تفكر في ذلك، وأنه ليس لديها ما تقوله عن هذا الأمر، عندئذٍ خطر لها شيء آخر وقالت:

ـ أنا لست مجنونة.

ـ ليس مهماً إذا كنتِ مجنونة أم لا، صدقيني هذا لا يهمني، وليس هذا السبب.

أخذت المرأة تفكر قليلاً ثم قالت:

ـ لا يجب أن تقلق على شيء، يمكننا الذهاب إلى أحد الفنادق ويمكنك أن تختاره بنفسك. فندقاً لا يعرفه أحد.

عندئذٍ بدا للرجل بأنه يفهم شيئاً ما.

سألها: أترغبين في أن نذهب إلى أحد الفنادق؟

قالت له، نعم أود ذلك، هل تأخذني إلى هناك.

قال الرجل ببطء: غرفة في فندق.

قال ذلك كأنه ينطق الكلمة ليستطيع أن يتخيل الموقع بطريقة أفضل، ليتخيل تلك الحجرة، وإذا كان سيعجبه أن يموت هناك.

قالت له المرأة إنه لا يجب أن يشعر بالخوف.

قال لها: لست خائفاً.

وفكر، لن أشعر بالخوف بعد ذلك على الإطلاق.

ابتسمت المرأة لأنه التزم الصمت، وبالنسبة إليها كان هذا يعني الموافقة.

بحثت عن شيء ما في الحقيبة، ثم أخرجت محفظة صغيرة ودفعتها على المائدة نحو الرجل.

ـ ادفع من هذه النقود، لأنني لا أحب النساء اللاتي يدفعن

الحساب في المقهى، ولكنني دعوتك وأتمسك بدعوتي. خذ أنت المحفظة وادفع ثم أعطها لي عندما نخرج من هنا.

أخذ الرجل المحفظة.

فكر في أنه مسن يدفع النقود من محفظة من الستان الأسود.

عبرا المدينة في سيارة أجرة تبدو جديدة ولا تزال مقاعدها مغطًاة بورق السيلوفان. أخذت المرأة تنظر من النافذة طوال الوقت، كانت شوارع تراها لأول مرة.

نزلا أمام فندق كاليفورنيا. كانت اللافتة رأسية بطول المبنى ذي الطوابق الأربعة. كان الاسم مكتوباً بحروف حمراء تضيء واحداً تلو آخر، وعندما كان الاسم يكتمل كانت تضيء كلها قليلاً ثم تُطفأ تماماً، ثم تبدأ من جديد من الحرف الأول: ك، كا، كال، كالي، كاليف، كاليفو، كاليفور، كاليفورن، كاليفورني، كاليفورنيا... كاليفورنيا، كاليفورنيا، كاليفورنيا، ثم الظلام.

ولبرهة وقفا هناك، متجاورين ينظران إلى واجهة الفندق، ثم قالت المرأة: لنذهب، واتجهت نحو المدخل فتبعها الرجل. نظر موظف مكتب الاستقبال إلى أوراقهما، ثم سألهما هل يرغبان في حجرة مزدوجة، بصوت خالٍ من الإيحاءات.

قالت المرأة: المتوفر.

أخذا حجرة تطل على الشارع، في الدور الثالث. اعتذر

موظف الاستقبال عن عدم وجود مصعد، وعرض أن يحمل لهما الحقائب.

قالت المرأة: ليست لدينا أية حقائب، فقدناها.

ابتسم الموظف، كان ذكيّاً، أخذ ينظر إليهما وهما يختفيان خلف السلم، ولم يفكر فيهما بسوء نية.

دخلا الحجرة، ولم يحاول أحدهما إضاءة النور، فلقد كانت اللافتة من الخارج تلقي بأضواء حمراء على الجدران والأشياء. وضعت المرأة حقيبتها على المقعد واقتربت من النافذة، فتحت الستائر الشفافة وأخذت تنظر قليلاً إلى الطريق. كانت تعبر هناك ثلاث سيارات نادرة تتحرك ببطء، وعلى جدار المنزل المواجه للفندق كانت النوافذ المضيئة تحكي الأمسيات المنزلية في ذلك العالم الصغير، تلك الأمسيات السعيدة أو المأساوية المعتادة.

استدارت، خلعت وشاحها ووضعته على المائدة الصغيرة. انتظر الرجل وهو يقف في وسط الحجرة. كان يتساءل إذا كان عليه الجلوس على الفراش، أو ربما يقول شيئاً ما عن المكان، بأن يقول مثلاً إنه ليس مكاناً سيئاً. رأته المرأة واقفاً هناك يرتدي معطفه، وبدا لها وحيداً لا زمن له، كأنه بطل في أحد الأفلام. اقتربت منه، وفتحت معطفه وتركته ينزلق على كتفيه ليسقط على الأرض. نظر كلٌّ منهما في عين الآخر، وكانت المرة الثانية في حياتهما، ثم انحنى هو ببطء نحوها، فقد كان قد قرر أن يقبّلها في شفتيها.

لم تتحرك هي، وقالت له هامسةً: لا تكن سخيفاً. توقف الرجل، ومكث هكذا، منحنياً قليلاً إلى الأمام، وفي قلبه الشعور بأن كل شيء على وشك الانتهاء، ولكن المرأة رفعت ذراعيها ببطء وتقدمت خطوة للأمام، واحتضنته، في البداية بعذوبة، ثم جذبته نحوها بقوة لا مثيل لها، ووضعت رأسها على كتفه، وكان جسدها مشدوداً يبحث عن جسده. كانت عينا الرجل مفتوحتين، رأى أمامه النافذة المضيئة، وشعر بجسد المرأة وهو يجذبه نحوه، وبيديها الخفيفة بين خصلات شعره فأغمض عينيه، وأخذ المرأة بين ذراعيه، وبكل ما تبقى لديه، وهو المسن، من قوة جذبها نحوه، وعندما بدأت في خلع ملابسها ابتسمت قائلة:

ـ لا تتوقع كثيراً.

وعندما تمدد فوقها ابتسم قائلاً: إنكِ جميلة جدّاً.

ومن إحدى النوافذ القريبة كان يصل إليهما صوت مذياع يكاد يكون واضحاً. كان الرجل مستلقياً على الفراش الكبير يحدق إلى السقف ويتساءل إذا كان التعب هو الذي يدير رأسه أم النبيذ. وبجواره كانت المرأة ساكنة، عيناها مغمضتان ملتفتة نحوه، ورأسها على الوسادة. كانا يمسكان كلٌّ منهما بيد الآخر. شعر الرجل أنه يريد أن يستمع إليها تتحدث مرة أخرى، ولكنه كان يفهم أنه ليس هناك ما يُقال، وأن أي عبارة ستُقال الآن في تلك اللحظة ستبدو سخيفة، ولهذا التزم الصمت تاركاً النعاس

يربك له أفكاره ويعيد إليه ذكرى شاحبة لما حدث في تلك الأمسية. كان الليل في الخارج غامضاً، وكان ما يفقده من زمن بلا مقياس، فكّر في كم يشعر بالامتنان لتلك المرأة لأنها قادته إلى هذا المكان، خطوة تلو أخرى كأنها أم تقود طفلها، فعلت ذلك بحكمة وبلا عجلة، والآن لن يكون ما يبقى عليها عمله صعباً.

ضغط على يد المرأة بقوة بين يديه وفعلت هي الشيء نفسه. كان يرغب في الالتفات والنظر إليها، ولكنه ترك يدها واستدار معطياً ظهره لها، وبدا له أن ذلك ما تنتظره هي منه، شيء يجعلها حرة التفكير، وبطريقة ما يهديها بعض الهدوء والخصوصية لتقرر خطوتها الأخيرة. شعر بأن النعاس يحمله بعيداً، وخطر بباله أنه يتضايق من فكرة عريه لأنهم سيعثرون عليه هكذا، عرياناً، وسينظر الجميع إلى جسده، ولكنه لم يجرؤ على قول ذلك للمرأة، وهكذا استدار برأسه نحوها ليراها وقال: أريدك أن تعرفي أن اسمي هو بيدرو كانتوس.

رددت المرأة الاسم ببطء.

قال الرجل: أجل.

ثم عاد ليضع رأسه مرة أخرى على الوسادة وأغمض عينيه.

أخذت نينا لوهلة تكرر ذلك الاسم في ذاكرتها، كانت تشعر أنه يتزحلق بعيداً كأنه قطعة من الزجاج بلا حواف على صينية مائلة.

استدارت لتنظر إلى حقيبتها الموضوعة هناك فوق المقعد، بالقرب من الباب. فكرت في أن تذهب لتحضرها، ولكنها لم تفعل ومكثت مستلقية على الفراش، فكرت في كشك اليانصيب، في نادل المقهى، في السيارة الأجرة ذات المقاعد المغطاة، رأت من جديد بيدرو كانتوس وهو يبكي ويداه موضوعتان في جيبي معطفه. رأته وهو يربت عليها من دون أن تكون لديه القوة على التنفس، وقالت لنفسها: لن أنسى أبداً هذا اليوم.

ثم استدارت واقتربت من بيدرو كانتوس، وفعلت ذلك الذي أبقى على حياتها: انكمشت عند كتفيه، وجذبت ركبتيها نحو صدرها، وأخذت تعدِّل من موضع قدميها حتى شعرت بهما وقد تطابقا تماماً، وأن فخذيها مضمومتان، وأن ركبتيها كأنهما فنجانان متوازيان أحدهما فوق الآخر، وأن كعبيها لا يفصل بينهما أي شيء، وانكمشت أكثر وأنزلت يديها المضمومتين لتضعهما بين قدميها، ونظرت إلى نفسها، رأت طفلةً عجوزاً، ابتسمت وتذكرت الغلاف والحيوان.

عندئذٍ فكرت في أنه على قدر صعوبة فهم الحياة، ربما نعيشها ونحن نحمل بداخلنا فقط الرغبة في أن نعود إلى الجحيم الذي جئنا منه، وأن نسكن بجوار الشخص الذي، في إحدى المرات، أنقذنا من ذلك الجحيم. حاولت أن تتساءل من أين يأتي ذلك الإيمان العبثي بتلك الحرب البشعة، واكتشفت أن ليس لديها إجابات.

أدركت فقط أنه لا شيء أقوى من تلك الرغبة في العودة إلى اللحظة التي مزقونا فيها، وأن نعيد تلك اللحظة لسنوات، ونحن نفكر فقط في أن من أنقذنا في تلك المرة يمكنه أن يفعل ذلك إلى الأبد، بأن ينقذنا من داخل جحيم أطول مشابه تماماً لذلك الذي جئنا منه، ولكن برحمة غير متوقعة، وبلا دماء.

كانت اللافتة تتلو سبحتها من الأضواء الحمراء، كانت تبدو كأنها ومضات منزل يحترق. أسندت نينا جبهتها إلى ظهر بيدرو كانتوس، وأغمضت عينيها وراحت في سبات عميق.

شكر وعرفان

بدأت كتابة هذه القصة أثناء نزولي كضيف على متحف إيزابيللا ستيوارت جاردنر في بوسطن. مكان غريب. منزل على نمط المنازل الأرستقراطية في فينتسيا، ولكن من دون فينتسيا. كان كل شيء موجود في خيال المؤسسة، أمريكية تهوى جمع التحف التي حفظتها بين جدرانه، فتركت خلفها تراثاً ضخماً من الأعمال الفنية بشرط وحيد: ألا يحركوا شيئاً من مكانه. وهكذا بقى كل شيء حيث أرادته هي. إنه مثل الذهاب لزيارة عمة مليارديرة أمريكية. مكان يستحق الزيارة.

يسعدني أن أذكر هنا بيرآنا كافالكيني ومعها كل العاملين في المتحف، والتي كانت قريبة منى في تلك الأيام، القرب المتحفظ لأهل بوسطن. أدين لهم جميعاً بالصمت الذي من دونه لا يمكن لأي قصة أن تبدأ.

آ.ب

الإسكندر الأكبر

عن الحكي

من محاضرات مانتوفا[1]

كانت سِنّ الإسكندر المقدوني ٢٢ سنة عندما أبحر بصحبة جيشه المكون من ٥٠ ألف جندي إلى آسيا الصغرى، ألقى في حركة رمزية برمح على تلك الأرض، على أرض آسيا، وقال: «هذه الأرض من حقي، ولم يكن هناك مجال للنقاش في ذلك، لأنني سأحصل عليها بالقوة». وكانت كلماته حاسمة.

كان شاباً صغيراً ـ لم تكن سنُّه تزيد على ٢٢ عاماً ـ وكان قد ورث الحلم بغزو أرض الفرس من أبيه الذي كان قد اغتيل بعد حملة مشابهة. كان قد ورث أيضاً من أبيه ما نسميه اليوم «التبرير الرسمي لهذا الغزو»، ولكن كانت الأزمنة مختلفة تماماً، لأنك إذا رغبت في الحصول على شيء كنت لتحصل عليه دون الحاجة إلى تبرير تصرفاتك أمام عصبة الأمم المتحدة.

---

(١) محاضرات مانتوفا هي ثلاث محاضرات ألقاها باريكو وأذاعتها هيئة الإذاعة والتليفزيون الإيطالية Rai على قناتها الخامسة، كانت عن الحكي والحقيقة والسعادة، وألقاها بمناسبة المهرجان العشرين للأدب على المسرح الاجتماعي بمانتوفا.

https://www.youtube.com/watch?v=H94h9Ja5niQ

كانت القصة التي يتمسك بها هو وجنوده ـ والتي حكاها والده ـ هي أنهم يفعلون ذلك بدافع الانتقام، سننتقم لأن الفرس هجموا على أرضنا، أرض اليونان، وحطموا معابدنا. كانوا يشيرون بذلك إلى شيء قد حدث بالفعل ولكن قبل ذلك بمدة طويلة، حوالي ١٥٠ عاماً. وكان ما حدث في الحقيقة هو أن الفرس قد هبطوا إلى اليونان، وكانوا في اليونان يستخدمون في تلك الفترة استراتيجية حربية شجاعة جدّاً، أخذ اليونانيون يتقهقرون تاركين لهم مدينتهم، وفي ذلك الوقت ترك أهل أثينا مدينتهم، وأخذوا ينسحبون نحو الجزر، وأخذ الفرس يحطمون ما يقابلونه في طريقهم، من الغضب، ولأنهم لم يفهموا ذلك المنطق، انتظرهم اليونانيون وأهل أثينا في ذراع بحرية صغيرة، وكان لدى الفرس عدد من السفن الضخمة جداً، وكانت لدى أهل أثينا سفن أقل ولكنهم كانوا مهرة جداً في التحكم فيها، وانتظروا في مضيق ضيق، ولكن قبلها كانوا قد قبلوا أن يتركوا كل شيء خلفهم، الأراضي والممتلكات، واستطاعوا فعل ذلك، وخاطروا بكل شيء. وكان هذا هو الحدث الذي يشير إليه فيليب المقدوني عندما كان يقول: «نحن سنعود إلى هناك، وسنذهب إلى أرضهم وسنستولي عليها لننتقم لشرف اليونانيين».

وكانت قصة غريبة بعض الشيء لأن فيليب كان مقدونياً، فهو لم يكن يونانياً، لم يكن يحاول الانتقام فقط من شيء حدث قبل ذلك بأعوام كثيرة، ولكنه لم يكن شيئاً قد حدث

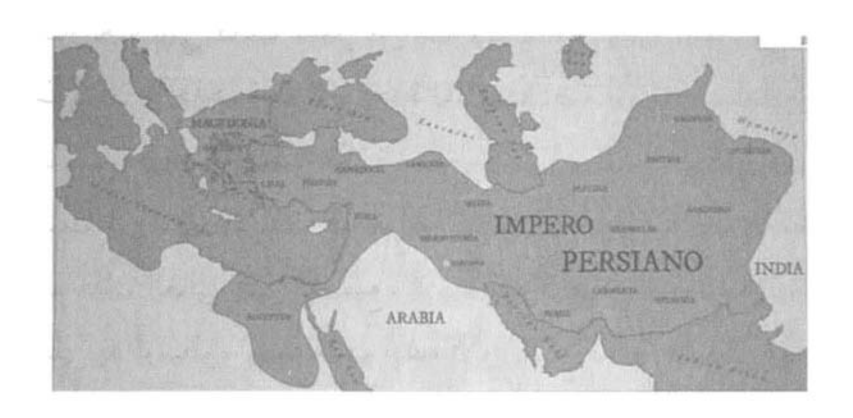
بالفعل لأرضه أو لشعبه.. كان شيئاً حدث لليونان. ماذا كانت إذن علاقة فيليب باليونان؟ كان شخصاً استطاع بطريقة أو بأخرى أن يربحها، لم يكن هو من يحكم اليونان، كانت بعيدة عن سلطاته ولكنه من خلال قدراته الحربية استطاع أن يصل إلى نوع من السيادة، كان هو تقريباً المرجع بالنسبة إليهم.

ولكنه كان مقدونياً، لم يكن يونانياً بمعنى الكلمة، كانت لشعبه وله تقاليد مختلفة، ولكنه باسم اليونان نقل إلى العالم كله حكاية مختلفة. سنصل إلى هناك وسننتصر عليهم وسنحرق معابدهم. وعندما رحل الإسكندر، رحل بالقصة نفسها، كان يحمل تلك القصة ويحملها معه جنوده أيضاً. أول شيء قام به الإسكندر كان غريباً جداً، كانت أمامه أرض متسعة الأركان، كان هو يعرفها فقط من خلال التخمين، والشيء الأول الذي قام به هو أنه ترك الجيش ليتجه إلى آسيا الصغرى وتوقف هو في جزيرة صغيرة، تقريباً بمفرده، وذهب ليزور قبر بروتيسيلوس. في زمن حرب طروادة كانت هناك نبوءة بأن اليوناني الأول الذي سيطأ بقدمه أرض طروادة سيموت على الفور، وكان هو الأول، وبالفعل كان أول من قُتل. وأول مكان توقف عنده الإسكندر في آسيا كان ذلك المكان، وفعل ذلك لتكريمه. وكانت تقريباً أسطورة، إلا أن الإسكندر قدم الذبائح، وقام بالطقوس الخاصة بذلك، ثم رحل وذهب إلى شاطئ محدد والذي يُقال إن أخيل رسا عليه عندما ذهب إلى طروادة، وهو تصرف عجيب

وسيريالي بعض الشيء، وذهب إلى قبر أخيل هو ومن معه من أصدقائه المقربين، ولدينا تفاصيل الطقس الذي قاموا به، فلقد تجردوا تماماً من ملابسهم، ودهنوا أجسادهم بالزيوت المقدسة، وجروا حول قبر أخيل. ماذا كانوا يفعلون؟ بالإضافة إلى أن الحملة كانت مجنونة. ولنفكر أنه كان معه ٥٠ ألف جندي فوق أرض يمكن لملكها، الذي يبلغ عدد رعيته على الأقل مليون نسمة، أن يجمع بسهولة جيشاً مكوناً من ثلاثة أضعاف عددهم، ١٥٠ ألف جندي، في أي لحظة. لم يكن الأمر فقط يتعلق بالعدد، ولكن أيضاً بتراث تلك البلاد، كانت بلاد الفرس ذات باع طويل وتاريخ عريق، فقبل أن يُكتب شيء ما ذو معنى باليونانية، كانت الأشعار الفارسية تتميز بالذوق الرفيع، وكانوا يتميزون بالذوق الرفيع في كل شيء، كانوا أغنياء، وكانوا يعتنون عناية فائقة بكل متعة من متع الحياة، إلى حد أنه توجد تلك الأسطورة التي تقول إن الإمبراطور وعد بمكافأة كبيرة لمن يتقدم إليه وقد اخترع متعة جديدة. بل إنه بعد أن دخل الإسكندر للمرة الأولى إلى خيمة داريوس، ملك الملوك، والذي هرب وحاول العثور عليه بلا فائدة، وكانت خيمة الحرب كالقصر، وتنقل القصة العبارة المحددة التي قالها الإسكندر عندما دخلها: «آه، هكذا إذن يكون المرء ملكاً!» لم يتخيل قط رفاهيةً من هذا النوع، حوض الاستحمام الضخم، وكانت لديه الرغبة الشديدة بعد المعركة أن يستحم فيه. ولكن

إذا نظرنا إلى خريطة العالم وقتها يمكننا أن نلاحظ الفارق الرهيب بين حجم أرضه، والحجم الرهيب لأراضي الإمبراطورية الفارسية التي قال إنني سأستولي عليها بالقوة. ما الشيء الذي يمكن أن يدفع إنساناً ليفعل شيئاً مثل هذا، شيئاً غير واقعي بالمرة؟ فيمَ يا ترى فكر الفرس، وداريوس عندما أخبروه؟ لم يكن شعب الفرس شعباً يتحدث كثيراً عن تاريخه مثل الشعب اليوناني.

ولكن ما الذي دفعه ليفعل شيئاً مثل هذا؟



ربما تمنحكم تلك الخريطة فكرة صغيرة عن جنون تلك الحملة. ماذا يمكن أن يدفع المرء ليقوم بشيء من هذا القبيل، شيء لا يصدقه عقل؟ كيف فكر فيه الفرس؟ عندما استيقظ داريوس في الصباح وأتى إليه شخص ليخبره بهذا الهجوم، فيمَ فكر؟ لا نعرف شيئاً تقريباً عما كان يفكر فيه الفرس لأنه كان

شعباً غامضاً لم يهتم كثيراً بكتابة تاريخه، فنحن نعرف كثيراً عن اليونانيين والمقدونيين لأنهم كانوا يحبون جداً كتابة تاريخهم.

ومن هنا نعرف قصة الإسكندر ومن تصرفاته الأولى نستطيع أن نعرف شيئاً عن الغريزة التي كانت تحركه، تلك الغريزة التي سنتحدث عنها هذا المساء، هي أن هذا الرجل كان لديه حلم، وكان لا بد أن يعضده بقصة يعرفها الجميع. كان الناس يعرفون قصتين، تلك الحقيقية عن هجوم الفرس والمنازل التي تحطمت، والأخرى التي اعتمدت على الأسطورة والخيال، وربما استندت بعض الشيء أيضاً إلى التاريخ، تلك القصص التاريخية التي كانت تنتقل من أب لابنه، مثل قصة أخيل وقصة طروادة. وأخذهما معاً، واحدة تلك الخاصة بأبيه وانتقامه من الفرس، والثانية كانت فكرة تستحوذ عليه، فقد كان ابن أقوى ملك في تلك المنطقة الجغرافية في ذلك الزمن، وكان معلمه هو ذلك الغالي على الجميع، أرسطو. وعرف الإسكندر الإلياذة على يد أرسطو، ربما عرف أيضاً الأوديسية ولكنها لم تكن تهمه كثيراً. كانت الإلياذة هي المعركة والحرب، وكانت هي كتابه المفضل، حلمه، كانت القصة التي كبر معها. وكان قد كبر على ضوء تلك الشخصية، شخصية أخيل، قلب الإلياذة، نصف الإله، الذي لم يكن في الإمكان هزيمته، تجسيد الحرب والشجاعة. كان قد كبر وهو معه، وعندما اتخذ خطوة تحدي أكبر إمبراطورية في العالم وتغيير قصة حياته، كان ما فعله هو

ارتداء القصة التي وُلد معها، والتي كبر معها، ورأى نفسه هو هذه الشخصية. كان أخيل، إذا غيرنا الزمن، ما يمكن أن يكونه الملك آرثر بالنسبة إلى الشخص الإنجليزي، أكبر بكثير من مجرد قصة، أسطورة. كان يرغب في أن يكون هذا الرجل. كان هناك شيئان من أغرب الأشياء التي قام بها في تاريخه الحربي، أحدهما هو هذا، زيارته لقبر أخيل في طروادة، والشيء الآخر فعله عندما ذهب إلى مصر، وللمرة الثانية يترك قواته ويذهب مع المقربين منه في رحلة في الاتجاه المعاكس نحو الصحراء الليبية، التي نعرفها اليوم، على بعد مئات الأميال، والتي نجا منها بأعجوبة، وكان ذلك الذي فعله في قلب هذه الصحراء هو أنه أراد التحدث مع إله. كان يوجد هناك معبد مكرس للإله آمون، وهناك ذهب لمقابلة عراف، والذي كان مثل زيوس، ولكن على تلك الأرض، وفعل هذا لأنه كان العراف الشرقي الأخير، وكان لديه كثير ليسأله لهذا العراف، ودارت حول ذلك نظريات كثيرة، ولكن كان أجمل الأسئلة هو أنه ذهب إلى هناك ليسأل هذا الإله إذا كان هو أباه. كان معروفاً عنه أن لديه ذاتاً متضخمة بعض الشيء، ولكن في ذلك العصر، بجانب أنه كان يُقال إنه من نسل أخيل من جهة الأم، وكان أخيل نصف إله. كان عديد من الأبطال ينتسبون جزئياً إلى آلهة، وكان هو لديه هذا الشك، والذي زرعته أيضاً فيه أمه. ما الذي أراد الإسكندر العثور عليه؟ بعد أن عثر على القصة، وعلى الأسطورة، ماذا

كان يريد أيضاً؟ كان يريد أن يعثر على تاريخه هو، كان يرغب في أن يعرف من يكون. كان عليه أن يفعل ذلك قبل كل شيء إذا كان يريد أن يطيح بأكبر الإمبراطوريات في ذلك الزمن.

يمكننا الآن بطريقتنا المعاصرة لقراءة كل هذا أن نقول إنها الدعاية، ولكن هذا سيُفقد المرء الجزء الأكثر أهمية من هذا كله. لم يكن الأمر بهذه البساطة، إن فكرة إلقائه السهم على أرض الفرس وإعلانه أنه سيستولي عليها لن تصل في المساء إلى قنوات التليفزيون للجميع ليروها. لقد قام بهذا أمام جنوده، بطريقة أو بأخرى كانت رسالة، وكان انتشارها سيستغرق سنوات قبل أن يحدث. ربما كان هناك نوع من الدعاية في الأمر ولكن لا يتعدى عشرة في المائة.

كان هناك شيء حقيقي في ذلك كله، إذ إنه لم يكن ليتحرك لو لم يكن يؤمن أنه هو نفسه جزء من قصة ما (تاريخ ما) وأن هذه القصة قد بدأت قبله، ولا يعرف إلى أين ستقوده. كانت طريقة ما ليجد لنفسه مكاناً في ذلك العالم، في العالم الإغريقي. لم يكن في إمكانه أن يوجد في ذلك الواقع دون أن ينسج قصته في تلك القصة الأعظم منه.

يمكن للمرء أن يكون محارباً عظيماً، ولكن إذا كان بلا تاريخ، سيكون بلا حقيقة. كانوا إذن يبنون الحقيقة حولهم، وكانت تلك الحقيقة تتكون عادةً مما يمكنهم عمله ومن الحكاية

التي يمكن إليها إسناد ما يمكنهم عمله. كان هذا ما نقله إلينا آباؤنا.

من ذلك الدرس العظيم تعلمنا ـ نحن الغربيين ـ شيئاً نطلق عليه الآن Story telling.

إن فكرة story telling اختراع أمريكي، فالأمريكيون هم أكثر من درسوه، أصبحت الكلمة منتشرة، وأصبحت ضرورية في كل مجالات الحياة، ولكن أصبحت أيضاً مصدر ضيق لكثيرين.

منذ أيام كان الجزار يحكي لي عن تنظيمه لمقره الجديد ويخبرني أنه كان لا بد أن يجد «حكاية» ما ليقدم بها المكان. أدركت أن شيئاً ما قد تغير.

أصبح لدينا شيء كتسويق «الحكي»، فأصبح الأمر لا يعجب كثيرين.

وأصبح الناس يستخدمونها في عبارات خاطئة أيضاً.

ولكن بالنسبة إلي، وقد أنشأت مدرسة للحكي، وأدرس أيضاً عنه، أحب أن أضع الأشياء في نصابها. ولكننا جميعاً مسحورون به، وندرسه، فهو مثل خبزنا اليومي، ولكنه بالفعل أمر يُعد جزءاً من وجودنا، شيئاً قديماً جداً لم نخترعه نحن في السنوات الأخيرة، بل إننا نُعد من أقل الشعوب (بل والحقب) استخداماً للحكي. إذا فكرنا في رجل العصور الوسطى، وكم الحكايات التي كان يعيش عليها. الإسكندر الأكبر كان يعيش بها

كل يوم. كان يفعل أشياء أخرى ويحارب ويقتل مئات من الأشخاص في مدن حاصرها فقط لأنها أظهرت بعض المقاومة.

أما نحن فحضارة علمانية، دخلنا في حربين عالميتين غاية في الوحشية، مندفعين خلف حكايات تدفعنا إلى الضحك عندما نستمع إليها في الوقت الحالي. فنحن لسنا مرضى بالحكي، ولا يجب أن تفكروا في هذا. بالفعل درسناه، ووضعناه في حياتنا اليومية، ونضعه أمامنا فوق الموائد، إلا أننا في معظم الأحيان لا نعرف بالفعل ماذا يكون. وأقول هذا بكل صدق، فنحن نتحدث كثيراً عن الأمر، إلا أننا لا نعرف بالتحديد عما نتحدث عندما نقول «حكي». وهكذا أخذنا نعمل، أنا ومعي آخرون، أخذنا ندور حول الموضوع ونفحصه، في محاولة لحل هذه المشكلة، وفي النهاية صغنا تعريفاً ما، يشرح ما الحكي، تعريفاً جزئيّاً مثل كل التعريفات، ولكن يمكنكم الرجوع إليه عندما تعودون إلى منازلكم لتشعروا بأنكم فهمتم شيئاً ما عن الحكي:

لتنزع الوقائع عن الواقع، ما يتبقى هو الحكي.

هذا هو التعريف بكل بساطة.

لهذا التعريف عديد من العيوب، ولكن ميزة واحدة يجب ألا تفوتكم، أنه يهزم بصفة نهائية مفهوماً خاطئاً، وسأعرّفه بهذه الطريقة: أنه يوجد واقع ويوجد أشخاص يحكون لك قصة، يختصرونها، أو يؤلفونها ويدفعونك إلى هضمها ويلفون عقلك، ويعملون على خداعك.

ولكن هذا التعريف يقول شيئاً آخر، شيئاً أصدقه ويصدقه أيضاً كثيرون، وهو أن الواقع مُكون من وقائع وحكايات، فالحكي جزء من الواقع.

وسأضيف حقيقة أكثر قسوة، هي أنه لا وجود لواقع دون حكي. وسأستخدم هنا صورة ربما توضح ما أقصده، فلنتحدث عن العملة، العملة في زمن الإسكندر الأكبر، أو أزمنة أخرى، فالعملة هي وسيلة عبقرية.ممَ تُصنع العملة؟ العملة تُصنَع من مادة معدنية ما مستديرة، لها وزن ما. ومن يصنعها، من يصكها، يطبع فوق وجهيها شيئاً ما، وبالتالي تلك الأسطوانة المعدنية تصبح عملة حقيقية، وما يطبعه فوقها هو الحكي. والشيء الذي يمكنه أن يساعدنا على الفهم هو أنه عادةً ما كانوا يطبعون حكايات فوق النقود، لم يكن هذا شيئاً ضرورياً، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك كأنهم يرغبون في القول إن كل شيء على ما يرام، وإنكم تأخذون معكم إلى منازلكم عملة نقدية كاملة (بلا عيب). العملة مصنوعة إذن من الشيء الواقعي، شيء ملموس، تلك المادة القيّمة ووزنها، ومن الحكاية التي هي عبارة عن جزء منها، حيث تصنع منها شيئاً ما.

إذا لم يُطبع شيء ما على تلك الأسطوانة المعدنية، وذهب المرء لشراء شيء ما، سينظر المرء إليها ويتساءل: هل هناك شيء ما يضمن قيمتها؟ ولكن إذا أخذت له عملة معدنية وعليها صورة الشخص صاحب السلطة هناك، ذلك الذي يقرر كل

شيء، ويضع القواعد والقوانين، ومن خلال صورته واسمه تكتسب تلك العملة قيمةً ما، وعندما أعطيها لآخر لن يتناقش معي، لأن هناك صورة فوقها، لأنها تحمل حكاية.

شيء واحد يجمع بين الواقع والحكي. جسم واحد مكون من الاثنين.

سأطلعكم على عملة، إحدى العملات التي صكها الإسكندر الأكبر عندما هاجم بلاد فارس، هو على الوجه الظاهر على الشمال، على صورته ذلك القرن، والذي أخذه من آمون، وهو يشير إلى أنه ابن للإله، ومن الجهة الأخرى، بخبث شديد، يوجد اسمه، ومكتوب أيضاً بازيليوس، أحد ألقاب الملوك، مرسومة عليها صورة ربما تبدو لنا غير معروفة ولكنهم كانوا يعرفونها، فقد كانت صورة الإلهة أثينا، التي تحمل في يدها تمثال Nike (نايك) إلهة النصر، فهي تحملها، وتمسك في يدها برمح يعبر وجه العملة كأنه رمح الانتصار في يدها تجاه الماء. وسأترجم لكم الحكاية التي في الصورة: أنا الإسكندر بمساعدة السفن اليونانية، وبتعضيد من أثينا سأنتصر، وهذه العملة ستصبح عملة إمبراطورية فارس.



في تلك الفترة لم تكن هناك نشرات للأخبار ولم يكن هناك الإنترنت، وكانت العملات وسيلة للحكي غير عادية ورائعة. تُصك العملة وتبدأ عملية التبادلات والانتشار، وهكذا تسافر أيضاً في كل مكان، ونظراً إلي أنها خفيفة وسهلة الحمل كانت تصل إلي مناطق بعيدة جداً، بسرعة رهيبة، إذا أرسلت شخصاً ينقل الخبر علي حصان كان سيحتاج وقتاً أطول. كانت كنشرة أخبار صغيرة جداً. كانت من الفضة وعليها صورته، وكان عليها أيضاً ما يرغب في قوله. فقد كان عليه أن يحارب في الماء، ولكن لم يكن المقدونيون بتلك المهارة في الماء، وكان لدى الإغريق ٣٥٠ سفينة موضوعة هناك، وكان هو يعجبه هذا. ماذا فعل؟ عملة تحكي حكاية، يقول فيها: إذا أعطوني تلك السفن سأفوز في المعركة. ثم إن الإغريق كان لا بد أن يمنحوه ثقتهم، كانت طريقة يعيش بها في عالمه، وهي الطريقة التي نعيش بها نحن أيضاً، فنحن منسوجون بداخل حبكة حكاية مثل العملة.

من هذا الجانب الخاص بواقع الحكي بدأنا ندرس شيئاً ما، على أمل أنه ربما استطعنا التحكم في شيء ما بهذه الطريقة. في واقع الأمر ما يمكننا التحكم فيه هو كم ضئيل جداً، وهناك بعض الأشياء التي أرغب في أن أشرحها لكم، أدركناها في تلك الأعوام التي فيها تجادلنا ربما إلى حد الملل حول الحكي. أولها أنه إذا كان الواقع تصنعه عدة أشياء فإن ما يقرر كيف يمكن أن

نميز الأمور هو أين هي نقطة الارتكاز. هناك أحداث كثيرة في الحياة حيث تكون نقطة الارتكاز فيها على الوقائع، وأخرى حيث تكون متحركة تجاه الحكي. وما نعرفه أن من يفوز في الحياة هو من يضع نقطة الارتكاز في موضع ما ويحترم هذا بنوع من التماسك. ومن يخسر في الحياة هو من يغير نقطة الارتكاز كل يوم. ولكن إذا تبنيت صيغةً ما، فنحن لا نعرف إذا وجب علينا الميل تجاه الوقائع أم تجاه الحكي، ولكننا نعرف أنه لا بد أن نقرر أين نضعها ثم بنوع من التناسق علينا تطوير الطاقة والقوة، لأنه في القطبين توجد ألوان مختلفة، ومعلومات مختلفة ونوعيات مختلفة.

سأعرض عليكم نموذجاً مختصراً، ربما سيبدو كشرح مدرسي ولكنه يمكنه مساعدتكم:

وقائع	حكي
مادية	غير مادية
عقلانية	غير عقلانية
غير شخصية	ذاتية
مُقنعة	انفعالية
معرفة	خيال

إذا مالت نقطة ارتكازكم أكثر نحو الوقائع، ستكون القيمة التي تحصلون عليها هي القيمة المادية، فمثلاً إذا تحدثت عن غسالة أقول إنها تغسل في بضع دقائق بلا ضوضاء، فهذا واقع وله قيمة مادية، وهو شيء مُختَرَع، وإذا أردتم أن تقنعوا أحدهم بشرائها يجب أن تقولوا له إن هذا يحدث في ثلاث دقائق فقط، فنحن نصنع تلك الغسالة. ولكن إذا انتقلت إلى الجهة الأخرى، إلى جهة الحكي، بأن تقولوا له، وهو الذي يقضي ساعتين في تنظيف قميصه، إن الغسالة تقوم بذلك في ثلاث دقائق. وإذا تحركت تجاه الناحية الأخرى، تجاه الحكي، أجد أن من يعبِّرون عن ذلك هم من يبيعون في الأسواق، فما عليه سوى أن يرفع ثمرة الخضراوات أو الفاكهة في يده، فهو لا يحتاج حتى إلى كلمة واحدة، كأنه بهذه الإشارة يحكي شيئاً ما. شيء غير منطقي، فما يدفعني لشراء تلك الثمرة هو الشخص والحكاية التي أشار بها إليّ، فهو شيء ذاتي، فهو من يؤمن بجودة تلك الثمرة وأنت تأخذها انطلاقاً من هذه الثقة، وليس أكثر. فهو شيء يعتمد على الانفعالات أكثر من القناعات.

وهنا أريد أن أقدم لكم شخصيتين تعجبانني كثيراً. معلمين، معلمين في التناسق والذكاء، في إمكانية وضع نقطة الارتكاز على الخط الذي يقود من الوقائع إلى الحكي ومن الحكي إلى الوقائع، فهما قد أدركا أين يضعانها بالتحديد، ولم يحدث لهما إلا مرات نادرة أن أخطآ في هذا.



أوباما كان، بالفعل، من أكثر الأشخاص وعياً وأوضحهم في إظهار أهمية الحكي في الحياة السياسية، فإن نقطة ارتكاز أوباما متجهة نحو الحكي، لأنه سياسي، وكان الأمر سياسياً يسير بهذه الطريقة من عقود طويلة. ولكن الأمر الآخر أنه هو فهم جيداً وقام بمهنته. وإذا عدنا للأفعال التي استخدمناها في جدول الحكي، كم منها رأيتم أوباما يستخدمها، تقريباً كلها، فلقد رأينا صوره وهو يلعب مع كلبه ويأكل الهامبورجر، ويلعب بأنواع الكرات المختلفة، يقوم بالشراء. بالنسبة إلى ماريو دراجي، هل رأيتم أي صورة له؟ أنا رأيته مرة واحدة فقط في صورة له يخرج من السوبر ماركت مع زوجته، ربما كان أمراً خضع فيه للصحافة، كما كان يظهر من هيئته، فهو يهدف لئلا يميل تجاه قائمة الحكي قط، حيث إن كل صوره وإيماءاته ونظراته تبتعد تماماً عن تلك الأفعال الانفعالية، بل هو يهدف لأن يوضح أنه شخص بعيد كل البعد عن الانفعالات وعن

التكهنات، فهو ليس إلا نتيجة لمجموعة من الأفكار المنطقية التي تؤدي إلى نتائج صلبة. وهذا هو ما يطمح إليه كل من يعمل في هذا المجال، كل من يعمل في الاقتصاد، فكل من يعمل في المجال المصرفي تجدونه يرتدي ملابسه بشكل مهني للغاية، بينما كما رأيتم من صور أوباما فهو يرتدي كما يريد. ولكن لم يحدث هذا لدراجي، لأنه اختار كشخص اقتصادي أن يمكث بعيداً عن الحكي إلى أقصى درجة، حتى لا يُربك الأفكار. والشيء الغريب أن ما نفعله نحن بنقودنا هو شيء مرتبط إلى حد كبير بالحكي، مثلما نفعل بانفعالاتنا، بينما هم من يدرسون هذا الأمر، لا يستخدمون الحكي على الإطلاق، بل الوقائع فقط.

فعندما نطلب الاستعانة بطبيب، يكون سبب اختيارنا له ـ إلى حد كبير ـ هو الحكي، لأنه دمث الأخلاق، لأنه متفائل، لأنه ماهر...

وبالنظر إلى صورة دراجي، نجده ماهراً جداً.

لذلك أجد في أوباما ودراجي، وهما القمة فيما يفعلانه، الأفضل في هذا التفسير.

في علاقتنا مع شركاء حياتنا أو أمهاتنا، نجد يومياً أن نقطة الارتكاز تتحرك بسرعة كبيرة طوال الوقت، بين الطرفين. كم منا لديه نقطة ثابتة، فهو أمر صعب إلى حد كبير. فالأمر يتعلق

بمهنتك، وجزء كبير من نجاح المرء يعتمد على أن يعثر على الموقع الصحيح الذي يضع فيه نقطة الارتكاز.

يوجد أيضاً حكم مسبق، يضايقني بعض الشيء، وسأقضي في التحدث عنه الوقت المتبقي لنا. إذا كان الحكي جزءاً من الحقيقة، فالسؤال هو: كم منه يمكننا التحكم فيه؟ وهو سؤال منتشر جداً، وتكون الإجابة عليه عادةً: القادرون يتحكمون فيه ويخدعوننا. فالحكي يصبح وسيلة يخدعوننا بها بصفة عامة.

لا توجد أسلحة للدمار الشامل، ولكن يوجد الحكي والحكايات، هكذا بدأت الحروب التي ندفع ثمنها حتى الآن. شيء طبيعي أن هذا جزء مما يحدث، ولكن سيكون شيئاً سطحياً ـ بل أحمق ـ أن نفكر في أن هذه هي ديناميكية الحكي في العالم.

لا بد لنا أن نتجه مباشرةً إلى المشكلة: هل يمكن التحكم في الحكي؟

وسأجيب من خلال موقفين عاصرتهما، وهكذا يمكننا أن نفهم أحدنا الآخر لأنها أشياء حدثت بالفعل.

الموقف الأول نتعلم منه: لا بد أن تصدقوا الحكي، لأن الحكي يولد حقائق، ولأنه عادةً ما يكون قوياً، وللتمكن من تخطيه لا بد أن يكون الشخص واعياً جداً بما يحدث حوله، وبالأحداث العالمية.

الموقف الثاني نتعلم منه: لا تتوهم أبداً أن هذا ما يحدث، فالحكي كثيراً ما يتخذ مساراته الخاصة به والغامضة، والتي أحياناً ولا حتى القادرين يستطيعون التحكم فيها.

وسأعود للخلف وأحكي القصتين:

١٩٩٧، هيل ـ بوب، كانا عالمي فضاء، كانا قد تنبآ بذلك المذنب الذي يحمل اسميهما قبلها. ١٩٩٧، رأيا ذلك المُذنب الذي يمر بالقرب من الأرض جداً، قريباً جداً حتى يمكن رؤيته، كان قريباً إلى حد أننا استطعنا أن نرى كيف يكون المُذنب، وعرفنا عن طريق الحسابات أنه لا بد من الانتظار ٤٣٨٥ سنة لنراه من جديد. وبالتالي الأكثر يقظة في العالم بدؤوا بالاهتمام بهذا الشيء، وجماعات نيو إيج ونوادي المذنبات، والأشياء المشابهة، وكان أول من اهتم بهذا الأمر كانوا هم. وكبر وتصاعد الأمر ليصل إلى الصحافة ومنها جريدة مهمة ورسمية تصل إلى عدد أكبر من البالغين مثل لاريبوبليكا، وكنت أكتب أنا أيضاً هناك.. كنت أؤلف كتباً، وكما يحدث عادةً في الصحف يتناول الكتّاب الأشياء من جانب مختلف، أو على الأقل هذا ما ينتظره البعض. وربما تجدون بجانب الخبر أخباراً أخرى تتناوله بطرق مختلفة، وربما تجدون عموداً في أقصى اليمين لأحد الكتّاب الذين يتناولون الخبر بمزيد من الحكي. لم يكن هذا هو الأسلوب الأصلي للصحف، ولكن وُلد هذا النوع

من الصحافة في الثمانينيات، وكان أحد من ألفوه مدير الجريدة وقتما كنت أعمل فيها، وكان هو وغيره من حاولوا أن يستخرجوا مما يحدث في العالم قوة الحكي. كان أسلوباً عبقرياً. وفي الواقع عندما شعر بما يدور في عقل الناس حول المذنب، تخيل صفحات الجريدة، وكيفية تناول الخبر، ثم اتصل بي، أنا الذي كنت أعرف بعض الشيء عن المُذنب ولكن ليس كثيراً، وقال لي: لماذا لا تكتب شيئاً من حكاياتك الخاصة؟ وكان هذا قبل أن يقترب المُذنب من الأرض بحوالي أربعة أو خمسة أيام، أقصى اقتراب له من الأرض، في يوم الجمعة ٢٤ من مارس. وكان هذا الانتظار قد دفع بعض المدن التي يظهر فيها اتجاه النيو إيج بقوة أن يطفئوا جزءاً كبيراً من أضواء المدينة حتى يتمكن جميع السكان بالعين المجردة من أن يروا هذه النجمة المقتربة من الأرض بلا أي تلوث ضوئي. مدن كاملة قررت أن تطفئ أنوارها ليظهر لها جمال هذا المذنب في يوم الرابع والعشرين من مارس. وهكذا عندما قال لي المدير: «اكتب شيئاً ما»، وافقت على الفور. قلت له بعد أن راجعت الالتزامات العائلية لتلك الأيام إنني سأذهب يوم الجمعة وسأكتب يومها، وعلى الطرف الآخر من الهاتف، على الرغم من أنه عادةً يبدي تحمسه عند موافقتي على الكتابة، ساد الصمت المطبق، ثم قال: ولكن سيكون هذا متأخراً، كنت أفكر أنه يمكنك أن تذهب هذا المساء لتراه. وكان هذا يعني

قبلها بأربعة أيام. وأنا أفكر فيما ينبغي أن أفعله، ثم أجيبه بما يخرجني من المأزق وأقول: ولكن المُذنب لن يمر قبل ٢٤ من مارس. وإذا به هو يجيبني بعبقرية: المُذنب يمر عندما نقول نحن. لم أستطع أن أبدي أي اعتراض، عندها فهمت، قلت له: لقد فزت، لن يذهب ابني ليلعب التنس. وفي الساعة الحادية عشرة كنت على الهضبة خارج تورينو أحدق إلى السماء، لأرى المُذنب الذي كان يبدو صغيراً جداً، ويُرى بالكاد. لم يكن هناك أحد سوى سيارة تقف بعيداً في الجوار. وعدت إلى المنزل وكتبت المقالة، وخرجت جريدة لاريبوبليكا كما ينبغي، تتحدث عن المُذنب قبل اقترابه بيوم، وكانت هناك أيضاً مقالتي، والتي لم تكن سيئة، وفي ذلك اليوم خرجت الجرائد تتحدث جميعها عن المُذنب، وفي تلك الليلة كان الجميع يرفعون أعينهم نحو السماء بحثاً عنه. في يوم ٢٤ أطفأت المدينة أنوارها، وتضايق الناس، فهم قد رأوه واقتنعوا أنه مر بالفعل في اليوم السابق، وهذا بالفعل ما قاله المدير: «يعبر المُذنب عندما نقول نحن هذا». الأحداث بلا حكاية لا وجود لها، ولكن إذا كانت هناك حكاية يمكنك أن تدفع الناس لترى الأحداث قبل وقوعها بأيام بل بأسابيع، بل يمكنك ببعض المهارة أن تدفعها حتى لشهر قبلها. ولكن ليس هذا بسبب حماقة الناس، ولكن بسبب أنك استطعت أن تستخدم لصالحك هذا الظرف.

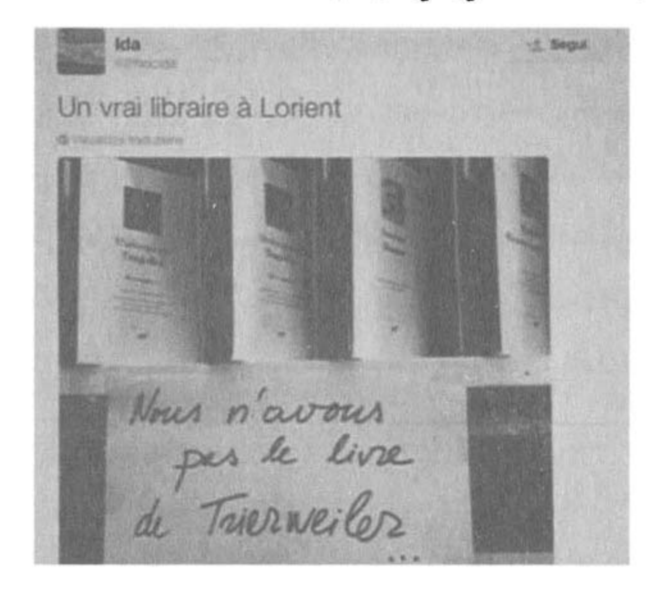
بطبيعة الحال يجعلنا هذا ننظر إلى الأمر على أنه الدليل على عبقرية الشر. إذا كان باستطاعتهم فعل ذلك، فيمكنهم فعل أي شيء. إذا أرادوا أن يدفعونا إلى تصديق أي شيء، يمكنهم هذا، يمكن للإعلام التحكم بنا تماماً. إذا كان ذلك في إمكانهم فسيفعلونه، وأنا أقع في الفخ وأنظز إلى المُذنب الذي لا أراه جيداً في اليوم الذي حدده لي الإعلام، ثم لا أطفئ النور اليوم التالي عند مروره من نقطة أقرب.

من وجهة النظر هذه، فإن الحكي «بيزنيس»، يعمل في صالح الطرف الأقوى، مثله مثل كل شيء آخر. ليست هذه أفضل الطرق لنواجه الحكي، فالأمر ليس بهذه الطريقة تماماً. والموقف الثاني لا يتعلق بقصة كبيرة لكن بموقف صغير، ولكنه كان بالنسبة إليَّ درساً كبيراً، فهي قصة قد حدثت بالفعل ويمكنها أن تشرح وتوضح لنا كثيراً.

تلك القصة تعود إلى عام ٢٠١٤ وتتعلق بالرئيس الفرنسي (السابق) أولاند. أخذوا له صورة وهو يخرج بعد استراحة الغداء من منزل عشيقته. كانت خطيبته في ذلك الوقت، فاليري تيريرفيلر، وكانت قد دخلت حياة أولاند بعد أن طردت واحدة قبلها، إلا أنها شعرت بالخيانة.

ما حدث بعد ذلك هو أن فاليري ألفت كتاباً، حيث ألقت ـ إذا أمكننا القول ـ بداخله كل القمامة التي جمعتها عن هذا

الرجل، بطريقة شريرة بالفعل. وكان عنوان الكتاب «شكراً لهذه اللحظة Merci pour ce moment»، وهذا الكتاب أعلنوا عن توفره في المكتبات في الرابع من سبتمبر ٢٠١٤، تحدثوا عنه قبلها، ونشروا منه بعض الأجزاء، وكان الأمر يتعلق بوضوح بأنه كتاب انتقامي. وبالفعل يظهر الكتاب في التاريخ السابق تحديده في فرنسا، بعد الترقب الشديد له، وفي إحدى المكتبات الصغيرة في إحدى القرى الصغيرة في لوريون قام أحد أصحاب المكتبات المستقلة بوضع ورقة صغيرة في واجهة العرض «ليس لدينا كتاب تيريرفيلر». بعدها ببضع ساعات يمر أحدهم أمام المكتبة ويرى تلك الورقة، يلتقط صورة لها وللكتب فوقها (مؤلفات شكسبير) ويقوم بكتابة البوست التالي على الفيسبوك: «صاحب مكتبة حقيقي في لوريون».



وتنتشر الصورة بشكل كبير في الواقع الافتراضي، وما يحدث أن تبدأ بالفعل مكتبات كثيرة، جميلة ومستقلة وذكية، في ذلك العالم الذي نتمناه، في وضع اللافتة نفسها «ليس لدينا كتاب تيريرفيلر».. بعضهم أوضح بكلمات مباشرة قائلاً: «لدينا أكثر من ١١ ألف كتاب في المكتبة، وليس لدينا أي نية لأن نضع في وسطها «قمامة» تيريرفيلر وأولاند، «نشكركم على هذه اللحظة» من التفهم». البعض الآخر وضع إعلانات أخرى يقول فيها: «ليس لدينا كتاب تيريرفيلر ولكن لدينا كتب فلوبار وبروست، سارتر إلخ». تكونت بذلك حركة أطلقوا عليها «لا، لا نشكر على هذه اللحظة»، والتي تجمع أصحاب المكتبات التي تمثلنا، أولئك الذين يقومون بهذا العمل عن حب، والذين يكملون عملهم بطريقة معجزية لصعوبته، والذين عندما يغلقون مكتباتهم نشعر بغصة في قلوبنا، وهي مكتبات موجودة بالفعل. وكانت لحظة من لحظات الفخر، حيث اجتمعوا جميعاً حول هذا العلم، حول هذا الرفض. ونحن أيضاً في إيطاليا تعاطفنا مع هذه الحركة، على الرغم من أن الكتاب لم يكن قد تُرجم بعد إلى اللغة الإيطالية، ولكن بدأ الحديث عن حقوق المكتبات الصغيرة وما إلى ذلك. وفي أثناء تلك الأحداث، يذهب أحد الصحفيين، العامل في صحيفة صغيرة، إلى صاحب المكتبة التي منها انطلق كل هذا، وذلك في تلك القرية الصغيرة، ويدخل إليه، وكان الوحيد الذي ذهب إليه، وحدث ذلك في

اليوم التالي، إذ أن الأمر انتشر بسرعة رهيبة، ويقول له: إنك بطل. كيف فكرت في هذا؟ وهكذا أجابه صاحب المكتبة: لم يصلني الكتاب، وكان الناس يدخلون ليسألوني عليه باستمرار، شعرت بالملل وقررت كتابة هذا الإعلان. شعر الصحفي بالدهشة، وحاول أن يستعيد اللحظة البطولية، وهذه هي قوة الحكي، فعندما نرغب في أن تصبح قصة ما حقيقية، حيث كانت بالفعل قصة جميلة، هوية المكتبات الصغيرة، واستقلالها، والثورة... وبالأمل في عينيه، وبتواضع يقول له الصحفي: ولكن هل كنت ستبيع في مكتبتك كتاب تيريرفيلر؟ في تلك اللحظة كان لا بد أن يسود الصمت المكتبة، وبينما نحن في إيطاليا نتحدث عن حقوق المكتبات، يقول صاحب المكتبة: بالتأكيد سأبيعه. ثم يقول له: يجب أن تضيف أنهم يرسلونه فقط إلى سلاسل المكتبات الكبيرة وليس للمكتبات الصغيرة، لأننا مكتبات صغيرة، وهنا ربما تنطلق حركة جديدة للمكتبات الصغيرة في محاولة للدفاع عن نفسها أمام المكتبات الكبيرة. يعود الصحفي إلى مكتبه، ولا بد أن ما حدث له يشبه ما حدث لي عندما أرسلني مديري للبحث عن المُذنب، من المؤكد أن مديره قد قال له: اذهب واكتب لنا موضوعاً عن هذا البطل.

أما هو فقد عاد إلى مكتبه، وشعر بالحيرة، ولكنه في نهاية الأمر نشر الحوار، ولكن هل حرك هذا الحوار ثبات الحكي في أوروبا؟ ولا ميلليمتراً واحداً.

ربما يعرف البعض منكم الحكاية التي انتشرت، ولكن لا يعرف أحد تقريباً ما حدث في الحوار، لأنه عندما تبدأ القصة في الدوران والانتشار، لا يمكن حتى للأحداث الأكثر وضوحاً أن تغير فيها أي شيء، لأن الواقع مصنوع من الحكي، بل من كثير من الحكي، وهذه الحكاية لم يصنعها شخص قادر أو في سلطة، ولكنها بدأت من خلال الغريزة الجماعية، فالحكي كالتيار، يسير بفعل قواعد ربما نعرف بعضها ولكننا بالتأكيد لا نعرفها كلها، ولا يمكننا التحكم فيه، ربما من وقت لآخر مثلما سبقنا ظهور المُذنب بيومين، ولكن بخلاف هذا يتخذ الحكي مساره الخاص، بل ويمكن ـ كما سبق ورأينا ـ أن تقنع الناس بأشياء قديمة، مثلما في حالة الإسكندر والقصة التي بدأنا بها، فالحكي شيء خطير، يتكون بمفرده ويتكاثر بمفرده من أشياء صغيرة ليكبر بعدها، ولا شيء يوقفه، حتى وإن كانت لديك الأدلة على عكس ما جاء فيه.

إذن لا بد من الحذر في الجدل مع الحكي، أو الاعتقاد أنه فقط في يد القادرين، فيمكن أن يكون سلاح المهزومين والضعفاء أيضاً. في الحقيقة لا يمكن لأحد التحكم فيه، ففي لحظة ما ينطلق شيء ما لا يمكن لأحد إيقافه. في الحقيقة من يستطيعون النجاح في هذه الحياة هم من يستطيعون السكنى في الحركات التي يخلقها الحكي، نوع من الأشياء التي يخلقها هو، فهو منتج جماعي، لا يمكن إلا لقليلين محاولة استغلاله، ولكن كثيراً ما تنقلب تلك المحاولة ضدهم أيضاً.

إحدى تلك المحاولات كانت محاولة الإسكندر، ذهب المقدوني لينتقم لليونان، ودخل عدداً لا نهائياً من المعارك، كان ثلاث منها مباشرةً في مواجهة جيش داريوس، ومعركتان كان داريوس حاضراً فيهما. وفاز بالمعارك الثلاث وبالفعل استطاع أن يحتل المملكة الفارسية. في المعركة الثانية، والتي كان الجيش فيها مكوناً من آلاف الأشخاص، رأى داريوس، كان الإسكندر يحارب دائماً في الصفوف الأولى، وداريوس بما أنه الملك كان في وضع يحميه، ليس بعيداً عن الصفوف الأولى، كان يحضر فوق عربته. هاجمه الإسكندر من الجانب أولاً للتمويه، ثم اتجه له مباشرةً، ورأى كل منهما الآخر، استدار داريوس بعربته الحربية وهرب، وبمجرد أن استطاع، عاد الإسكندر ليتبعه مع مجموعة من جنوده، ولم ينجحوا في ذلك. فاز الإسكندر بالمعركة، وكانت تلك الأمسية المشهورة التي ذكرتها في البداية عندما دخل خيمة داريوس واستحم في حوض الاستحمام الخاص به، وكانت الليلة المشهورة التي فيها اكتشف كيف يعيش الملك في رخاء بالفعل. واستمر في مطاردته عامين، فالمسألة لم تكن بهذه السهولة في ذلك الوقت، فلم تكن هناك أقمار صناعية إلخ. وفي وقت ما عثر عليه، التقى الجيشان، وبدأت المعركة، وكانت المعركة الأخيرة الحاسمة بالنسبة إلى داريوس، فقد ألقى الإسكندر برمح على عربته، والذي أصاب الحوذي فقتله، وفي هذه المرة أيضاً استطاع

داريوس الهرب، وفي هذه المرة أيضاً لحق به الإسكندر وفي هذه المرة أيضاً أفلت منه. وفي أثناء بحثهم عنه بعد ذلك عثروا بعد بضعة أيام على عربة حربية مقلوبة في الوحل، وبداخل تلك العربة عثروا على جثة رجل ملتفة حول رقبته سلسلة ذهبية، وكانت جثة الملك، قتله أتباعه وسلموا تلك الجثة بعد ذلك للإسكندر، وبهذا كان قد أتم عمله، فقد حصل على الانتقام الذي يرغب فيه، ونظرياً كان على الإسكندر أن يتوقف عند ذلك الحد، فقد كانت نهاية الحكاية، ولكن ما فعله هو كان شيئاً صعباً جداً، ففي الحياة اليومية، في حياة السياسيين، في حياة من يبيعون الأشياء، هناك تغيير في الحكي، كانت لديه حكاية أخرى، لتبدأ من خلالها رغبته في الحصول على سنوات أخرى من الاكتشافات والحروب، كانت لديه تلك القصة، ولكنها كانت مختلفة تماماً عن تلك التي بدأ رحلته بسببها، وكانت هذه القصة أنه لن يكون هناك منتصرون ومهزومون، لن تكون هناك بلاد اليونان ولا الفرس، ولكن سيكون هناك عالم واحد، سنكون نحن الآدميون، وسنكون جميعاً تحت حكم الإسكندر وسنعيش تحت حكم مبادئ وقيم وأوامر الإسكندر. لم تكن قصة في غاية السهولة، وكان جنوده من مقدونية، وفي تلك الحقبة كان يهمهم الانتصار والحصول على غنائم الحرب، كان لدى المقدوني هوية قوية جداً، ولم يكن يعجبهم كثيراً فكرة أن يرتدوا مثل الفرس، أو أن يبدأوا في تبني طقوس كانوا

هم يمارسونها، وعندئذٍ كان هو قد بدأ يشرب النبيذ بلا ماء، وهو تصرف كان اليونانيون يعدونه بربرياً، فقد كانوا يخففون النبيذ بالماء. وبدأ هو يسمح ببعض العادات التي كانت تُمارَس في البلاط الفارسي، والتي لم يكن في إمكان المقدونيين التسامح معها، وكانوا يشعرون أن هوية الشعب بدأت تذوب في سحر وثراء تلك الأرض الجديدة، وكانوا يرون الإسكندر وهو يخرج مرتدياً الزي الفارسي، وتزوج ابنة داريوس، وهي امرأة فارسية، وقع في حب امرأة آسيوية، وهي المرأة التي أحبها في حياته، روكسانا، ولم يكن هذا شيئاً يعجبهم.

كان الإسكندر الأكبر أحد جهابذة الحكي، كان معروفاً كمحارب عظيم، ولكن يُعترف له أيضاً بأنه أحد مؤسسي الحكي والحكاية، كان كل شيء يفعله يحتوي على قصةٍ ما، على رمزٍ ما. عندما وضع هذا الطقس ـ الذي لم يكن يعرف كيف يحكيه لأتباعه، أن القصة تغيرت وأصبحنا أمام مغامرة جديدة ـ تزوج من امرأة آسيوية، وقام بتزويج الثمانين المحيطين به بثمانين امرأة آسيوية، ثم قام بتزويج عشرة آلاف من جنوده بعشرة آلاف امرأة آسيوية، وحدث هذا في اليوم نفسه في احتفال لا يمكن أن يضاهيه أي احتفال اليوم، لم يتوقفوا عن الشرب والرقص لأيام عديدة. عشرة آلاف زائد ثمانين، بالإضافة إلى فرحه. لم يكن يعرف سوى هذه الطريقة ليقول لهم: لم يعد

هناك منتصر ومهزوم، لم يعد هناك شرقي وآسيوي، لا يوجد سوى نوع واحد من البشر، وهو ما يسبب ثراء الكل، ونحن سنخلط كل ذلك وسنحصل على نوع واحد من الآدميين. ولكن بالنسبة إلى جندي مقدوني سار الآلاف من الكيلو مترات، وقتل من يدري كم من الجنود، لا يهمه هذا الحكي، ولم ينجح هكذا الإسكندر في تغيير الحكي. والشيء الأكثر وضوحاً أنه استمر في خوض المعارك، ولم يكن هناك أي معنى للاستمرار في الحروب بعد الحصول على تلك الإمبراطورية، واستمر في الحروب ليملك على هذه الأرض، ليروضها، وأن يقضي على كل المتمردين ويمتلكها بجملتها، إلى أقصى حدودها، وقاده ذلك إلى الذهاب لنهاية الإيندو (منطقة المحيط الهادئ والهندي)، والتي لم يكن حتى الفرس قد ذهبوا إليها، وكانت منطقة خارج خريطة تلك الحقبة، وكان هؤلاء الجند ما زالوا يتبعونه، وهناك، قال هؤلاء الجنود لا، كانوا يدينون له بكل شيء، كان بالنسبة إليهم كالإله، ولكنهم أرسلوا أكبرهم سناً، وبينما كان الإسكندر يقول سنذهب إلى هناك لنحتل العالم، سنصل إلى العالم كله، قال هو: ولكننا لن نذهب. وبالنسبة إلى الإسكندر كان كأن أحداً يقسمه إلى اثنين، كان جرحاً عميقاً. وذهب ومكث بعض الأيام دون أن يتحدث مع جيشه، ولكن الجيش لم يتزعزع سنتيمتراً واحداً عن موقفه، وتقهقر الإسكندر وتراجع عن موقف.

ونظراً إلى أنه لم يُهزم قط من قبل، كيف يمكننا أن نسمي تقهقره هذا، يمكننا أن نطلق على ذلك أنه لم تكن لديه القصة الكافية ليدفع أولئك الرجال للتقدم أكثر إلى الأمام. كان لديه الكاريزما والقوة الحربية، كان لديه النقود، كان لديه مثاله المجنون، كان لديه إحصائيات رائعة، ولكنه لم يستطع أن يدفعهم للذهاب إلى هناك، وراء هذا النهر. لم تكن هناك قصة تشرح لهم لماذا يجب عليهم عمل ذلك، فعادوا إلى الخلف.

ومات الإسكندر في سن ٣٣ عاماً، وربما مات من المبالغة في الرذائل، كل ما كان يمارسه من شرب الكحول وإفراط في الأكل والاحتفالات، وكل شيء. وعند لحظةٍ ما مرض، وتألم لمدة عشرة أيام، في عاصمته. في أثنائها بدأت تنتشر في جيشه إشاعة أنه مات بالفعل، وعندئذٍ جعلوهم يمرون جميعاً أمام فراش الإسكندر ليطلعوهم أنه ما زال على قيد الحياة. لم يكن الإسكندر يتمكن من التحدث، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي سيرونه فيها. وفي آخر ليلة قبل موته أسقط نفسه من فوق فراشه وأخذ يزحف في محاولة للوصول إلى نهر الفرات ليلقي بنفسه فيه، وهذا أيضاً نوع من الحكي، لماذا؟ لأنه كان إلهاً، والآلهة لا تموت، بل تختفي. ولكن للأسف تلك المرأة، روكسانا زوجته، عندما دخلت إلى غرفته ولم تجده، خرجت للبحث وأوقفته بعد الجهد الكبير الذي بذله ليصل إلى تلك المياه، وأعادته إلى فراشه. والشيء الأخير الذي حدث له بعد

موته هو شيء يطابق العادات الفارسية، فقد قبّلته زوجته روكسانا في فمه حين مات، لأنه كان جزءاً من معتقداتهم أنه بهذه الطريقة ستدخل الروح التي تخرج من فمه بداخلها، لتأخذ هي الشيء الأخير الخارج منه. هكذا يحكون القصة، ولكن قصة الإسكندر بالتأكيد هي أسطورة، وحكاية، ولا يمكن للمرء أن يميز كثيراً بين الأحداث الحقيقية والحكي فيها. ولكنها كانت قصة تُحكى كثيراً.

ولنتعرف أكثر إلى من يكون، فإن والدة داريوس التي كانت قد أُسرت بعد المعركة الأولى، حيث هرب داريوس ولكن بقيت هي في يدي الإسكندر، وكان الإسكندر يحترمها طوال حياته، فهو قد تزوج ابنة داريوس. امتنعت تلك السيدة العجوز عن الطعام حتى ماتت بعد موت الإسكندر.. إلى هذا الحد أحبته كأنه ابنها. هذا لا يُعد جزءاً من امكانية الحكي لديه، ولكن بسبب وجود المرء في رحاب قصة الإسكندر يجد نفسه يرغب في مزيد من الحكي.

بالإضافة إلى أنني فهمت كثيراً عن الحكي من قصته، لكن هناك شيئاً آخر تعلمته من دراستي عنه، وعن حياته، في إحدى المرات، بكل بساطة فكرت في أثناء ما كانت لدي تلك الخريطة...



... التي كانت تمنحني فكرة عن العبث. فوق تلك الخريطة كثيراً ما رأيت رحلته، رحلته تلك العظيمة التي لا يمكن تصديقها، في أماكن مجنونة، باردة جداً أو شديدة الحرارة، لقد وصل إلى جبال الهيمالايا، لقد قام بخطوات دون أن يتوقف، فعل أشياء مجاوزة للطبيعة، وإذا وضعنا رحلة الإسكندر على خريطة اليوم، وإذا نظرت إليها جيداً، فهي رحلة مجنونة بالفعل، وكنت أنظر إليها كثيراً. فقط في أحد الأيام فكرت في شيء ما وهو أننا نحتاج إلى أن ننظر إليها من خلال العالم كما يتخيله هو لا كما نراه نحن الآن، وهكذا حاولت بكل الطرق العثور على الخريطة التي ربما تشبه ما كان لديه، خريطة العالم التي انطلق هو من خلالها. وعند لحظة ما طلبت رسمها.



وها هي ذي الخريطة. ها هو ذا العالم كما كان هو يتخيله. كان العالم بالنسبة إليه مثل جزيرة كبيرة يحيط بها الماء من كل جانب. وإذا رسمت أنا رحلته على هذه الخريطة التي كانت في ذهنه لن تصبح بالنسبة إلينا رحلة شخص مجنون، ولكنها رحلة واضحة جداً، وتتناسب مع الحكاية التي كان يحكيها، فقد كانت رحلة إلى نهاية العالم. في نهاية الأمر الحكاية التي لم يستطع أن يقنع بها أتباعه كانت حكايته هو، كانت حكاية شخصية جداً. الوصول إلى أقصى المسكونة. بطبيعة الحال نحن نتحدث عن العالم الخاص به، العالم الذي كان يمكنه هو تخيله. عندما وصل إلى الإيندو، قالوا له إنه ما زالت أمامه ثلاثة أشهر أخرى من المسير، وكان هو سيقطعها، ولكن الآخرين لم يكونوا يفهمون أنهم هناك ليصلوا إلى أقصى المسكونة، وكانوا يفكرون أنهم هناك ليحاربوا، لم يعرف هو كيف يشرح لهم

هذا، ولكن كان الأمر واضحاً جداً هنا (على هذه الخريطة التي تعبِّر عن خياله). وهذا ما دفعني للتفكير: لماذا لا أنجح تقريباً على الإطلاق في علاقاتي مع الناس، القريبين مني والبعيدين؟ لأننا نرى رحلة من هم حولنا، ونتناقش ونفسر المسارات والدوران، ونتناقش ونحاول أن نفهمها، ونحاول أيضاً أن نضعها في إطار الحكي، ولكن الشيء الوحيد الذي لا ننجح في فعله هو أن نفهم هذه الرحلة، وأن نضعها في إطار الخريطة التي لديهم هم، فنحن لدينا الرحلة، لدينا التحركات التي يقومون بها، ولكن تنقصنا **الخريطة**، تنقصني **خريطة** الجميع. ولهذا يمكنني أن أقضي وقتي لأفكر لماذا ذهب إلى اليسار، ثم إلى اليمين، ثم توقف، لماذا عاد إلى الوراء، ويمكنني أن أجادل بهذا الشأن ويمكنني أن أقتل نفسي بحثاً لأصل للأسباب. وماذا أعلم في الحقيقة عن هذا؟ لا شيء. ونجد أنفسنا جميعاً في الموقف نفسه، نعتقد أننا وصلنا للنهاية، ولكننا نكتشف أنه ما زالت أمامنا مسيرة ثلاثة أشهر. عندما أجد نفسي وقد صعب عليّ فهم الآخر، فإن ما تعلمته، من قصة الإسكندر، هو أنه تنقصني خريطة العالم، عالمه هو، تنقصني خريطته الشخصية، فلنتخيل إذن عالم الآخرين، من نحبهم، من هم جزء من حياتنا.

وهكذا اكتشفت كم نهدر من الوقت عندما نضع تصرفات الآخرين في إطار عالم نعده عالمنا، أو قرر الآخرون أنه هو

العالم الذي يجب أن ننظر من خلاله، أو العالم الرسمي، ولكننا لا نستطيع أن نتخيل حقيقة **الخريطة** التي يراها الآخرون، خريطتهم هم، ولذلك يكون لرحلتهم معنى، وتكون لها أيضاً حكاية. ولهذا إذا أردت أن أحسّن طريقتي في رؤية العالم ولو مليمتراً واحداً، وسيكون هذا بالقدر المعقول، وأن أقف في مواجهة الآخرين أو بجوارهم، سيكون بفضل تلك الخريطة، بسبب رحلته تلك، وبسبب رغبته تلك في الوصول إلى أقصى المسكونة، ذلك الذي كان يفهمه هو فقط، والذي لن نتمكن نحن أبداً من فهمه إلا من خلال هذا الرسم، وهذه الخريطة.

الفهرس

هذا الكتاب

في الريف كانت المزرعة القديمة لماتو ريو تقبع مختفية، يلفها الظلام الدامس في مواجهة ضوء المساء. كانت كأنها البقعة الوحيدة الموجودة في تلك المنطقة السهلية الواسعة... وصل الرجال الأربعة بداخل سيارة مرسيدس قديمة. كان الطريق مليئاً بالحفر، كان طريقاً جافاً، فقيراً، ريفياً.

ومن المزرعة رآهم مانويل روكا.

اقترب من النافذة. في البداية رأى عمود التراب يرتفع خلف خيال الذرة، ثم سمع ضوضاء محرك السيارة. لم يعد أحد يملك سيارة في تلك الأنحاء. كان مانويل روكا يعرف ذلك. رأى المرسيدس تظهر من بعيد ثم تتوارى خلف أشجار البلوط. اكتفى بذلك.



ISBN 978-9922605180
9 789922 605180

الغلاف : سكينة صلوَن